جنودٌ مِن عسل

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: جنودٌ مِن عسل
التأليف: محبوبة محمد سلامة
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: أدب
عدد الصفحات: 144 صفحة
عدد الملازم: 9 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/28513
الترقيم الدولي: 978-977-278-804-0

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

جنودٌ مِن عسل

محبوبة محمد سلامة

دار البشير للثقافة والعلوم

الإهْداء

إلى الّذين آمنوا بالحياة..

ثمّ كَفروا..

ثمّ يئسوا..

ثمّ تركوا..

ثمّ ضاعوا..

ثمّ ماتوا، وهُم أحياء.

في حديقةٍ مُنعزلةٍ على ضفافِ النّيل، تحرّكت طفلة بِخُطى مُتعثِّراتٍ إلى حيث استقرّ هاتفُ والدتها مُلقًى أرضًا، تتزلزل قدماها كأنّ الأرضَ ترقص من تحتِها، فتسيرُ سَيرةً وتزحفُ اثنتيْن؛ تلقّفت الهاتفَ ببهجةٍ وابتِسامة نصرٍ لاعبة بشاشتِه، تضغط على كلّ ما يصدرُ لونًا أمامَ عينها، فاجأها من بين يديها صوتُ إذاعة القاهرة، وأحدُهم يتكلّم بِرتَابة وهدوء:

– هذا وقدْ كشف المعهدُ القوميّ للبحوث الفلكية أنّه يمكن رؤيةُ ظاهرة الكسوف في معظم أنحاء أمريكا الجنوبية، ويُرى كليًّا في شيلي والأرجنتين، ولن يُرى هذا الكسوفُ في مصر، وكذلك لن يُرى في المنطقة العربية في أيّ مرحلةٍ من مراحله؛ لحدوثه ليلًا.

فَزعَت الفتاةُ من صوت المتحدّث، ثُمَّ لمَّا توقّف لما يبدو أنّه التقاطٌ لأنفاسه؛ ظنّت أنّ إزعاجه قد انتهى؛ فعادت في زهوٍ تنقضّ على شاشة الهاتف، والذي استرسل المُذيع حينَها حديثه الهادئ:

– وسوف يستغرق الكسوفُ منذُ بدايته وحتّى نهايته مدّةً قدرُها أربعُ ساعات وستٍّ وخمسين دقيقة تقريبًا، وتكون بداية الكسوف في حالته الجزئيّة عند السّاعة السابعة إلّا خمس دقائق مساءً بتوقيت القاهرة، وينتهي الكسوفُ– بجميع مراحله– عند السّاعة الحادية عشرة وإحدى وخمسين دقيقة من مساء اليوم بتوقيت القاهرة المحلّي، ويمكن الاستفادة من ظاهرتي الكسوف الشّمسي والخسوف القمري للتأكّد من بداياتِ ونهايات الأشهر القمرية، أو الهجريـ...

هُنالِك ألقَتِ الأُمّ القبضَ على طفلتها مُتلبّسة بتدميرِ الهاتف، وإخراج أحْشائه غير القابلةِ للإخراج، ونثْرها مِن حولها!

صدحَ صوتُ الفتاة صارخًا مُعترضًا على وأدِ فرحتِها، وأخذ لعبتِها، لكنّ الأُمّ جذبتها من يدها غيرَ آبهةٍ لتوسّلاتها حتى دخلتا المنزل.

خرسَ الصوتُ– أو مات إلّا قليلًا– الذي كان ينبعثُ منه، اختفى أثرُ الطّفلة وأمّها، هدأ كلّ شيء.

ثُمَّ دقّت السّاعة السابعة مساءً...

وبدأ حديثٌ آخرُ بين خلقٍ آخر، لا يدركُ حروفَه إلّا الله، ولم يؤذِنْ به سواه!

- ألا تبدو الأرضُ حزينةً هذه الأيّام يا شمسُ!؟

بهذا ابتدأ القمرُ حوارَه مع الشّمس بعد غيابٍ امتدّ لشهورٍ طوال لمَّا لمْ يجتمعَا فيها، وها قدْ أتى الحدثُ الذي يُعرف بـ الكسوفِ ليجمع في وقتٍ واحد ما لا يُمكن لهما أنْ يجتمعَا!

على إثْر سؤالِ القمر أطالتِ الشّمسُ النّظرَ إلى الأرض، بعض المياه السّاكنات ذهبْنَ عن أركانها، جزءٌ من الجبال تغيّر شكله فيها، قليلٌ من الرّياح تصرخ في سمائها، في النّهاية أجابت بثقةٍ:

- لا، لم تختلفِ الأرضُ أبدًا، إنْ كان هذا فرحَها فهو شيمةُ ظهورها، وإن كان هذا حزنَها فبعضُه لن يضرّها.

سكتَ القمر، صمتتِ الشّمس، تنحنحتِ الأرضُ وهمّت بحديثٍ من شكرٍ بادئةً:

– الحمدُ لله أنْ جمعنا ثلاثًا بعدَ غياب، وأحيانا ثلاثًا في أوّل الكتاب، وجعلَ اجتماعنا هذا في طاعة، وتفرُّقنا منه على طاعة، وما أتى علينا كسوفٌ ولا خسوفٌ إلّا وقد مُدَّ لنا في أعْمارنا، ومَنّ علينا بلقائنا؛ فلَهُ الحمدُ أوّلًا، ولَهُ الحمدُ آخرًا.

هُنالِك رمَتِ الشّمسُ بجَمَراتها، وازداد فيها اشتعالُها، فاصفرّت غلالتُها حتّى صارت كالدّينار يلمعُ في ماءٍ بلا قرار، وقالت:

– الحمدُ لله أنْ مكّنني في يوميَ هذا أنْ أعود، وجدّد لي في لقاءِ القمر والأرضِ العهود، وأحْياني حياة الطائعين، ورزقني صُحبةَ المأمورين، فلَهُ الحمد أوّلا، ولَهُ الحمدُ آخرًا.

ثُمَّ وكأنّما أقبلَ شبابُ اللّيل على ظلال الأرض، فاسْتترَ وجهُ الشّمس وتوارتْ بالحجاب.. تحدّث حينها القمرُ بطلاقة:

– الحمدُ لله الذي دلّ على قدرته باجتماعنا، وأبدعَ في لطائف حكمتِه سرّ حديثنا، ولا فلاح إلّا لمَن هداه، ولا صلاح إلّا لمن عصمَه مِن اتّباع هواه، فلَهُ الحمدُ أوّلًا، ولَهُ الحمدُ آخرًا.

اقتربَ الثلاثةُ أكثر، وتجلّى في الفضاء عجيبُ تراصّهم على خطٍّ واحد، همّت الشمسُ بسؤالٍ لكنْ سبقها القمرُ مُخاطبًا الأرض:

- ما بالُ وجهكِ قد اختلف؟ والحزنُ في أركانكِ بدا واغترف!

لم يأتِ من الأرض صوتٌ؛ فتحدّثت الشمس:

- هذا أوانُ لقائنا، والصّمتُ فيكِ يَعتَكِف!

لاحَ على الأرض شبهُ ابتسامة، وسلامة مِن كلّ هَمّ، وعلى وجهها بدتْ علامة أنّ الخير فيها أتَمّ، فأجابت:

- ما رأيتُنِي يا خلقَ الله يومًا إلّا وقد كان للجَمال عليَّ عظيمُ الأثر، ووجدتُه وهو يُهدى إلى الإنسان، وينزلُ عليه، ويُصبّ فيه، ويتجلّى في مطلع النّهار ودفئه، ويظهرُ في يقظة الفجر وأهلِه، وهنا على قمم الجبال، وسفوح التلال، وشواطئ الأنهار، وأمواج البحار، وفي رقّة الكلمات، ونثْر العَبَرات، وصدْق النظرات، ثُمَّ إنّي حفظتُ كلّ جَمال بداخلي لأشهدَ بين يديّ الإله عليه، وأسجدَ شكرًا على نصيبٍ من طاعةٍ إليه.

سألتِ الشّمس:

– وهل يدعوك كلّ هذا الخير إلى كلّ هذا الحزن؟!

– ومَن قال إنّ ما فيّ هو الحزن؟!

فما أنا إلّا خلقٌ من خلقِه، أحبّ صُنع الله داخله، والحياة التي وُجِدَت بيْن أركانه، ثُمّ علِمت منذ أنْ نزلَت { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ}؛ أنّ ذاك الجَمال آنَ زوالُه، وها هي الأيام تمرّ وتزدادُ العلامات مؤخّرًا دلالةً ووضوحًا، فتفكّرت في البداية والنّهاية وما بينهما، أحنُّ لقديمٍ مِن آياتِه سبحانه، ولقادمٍ من لطفِه.

توقّف الكلام، دقائقُ من صمت، تململَ القمرُ قليلًا، فقطع ثوبَ الصّمتِ سائلًا:

– ثُمَّ..؟

أجابتِ الأرض:

– ثُمَّ إنّي يا "صُنعَ الله" أتذكّر ما مضى، وأحمدُه أنْ رزقني شهادةَ هذه الأقدار التي أضاءتني، أو بعضي، أو جزءًا صغيرًا منِّي، أو حتّى نفْسًا هزيلة تحيا بين جنبيّ.

همّتِ الشّمسُ بكلامٍ، تردّدت فيه قليلًا أو كثيرًا، في النهاية عزمَت على البوْح:

– ألا تريْن يا أرضُ أنَّكِ تتحدّثين حديثَ اعتراض، وتنسيْنَ أنّنا مأمورونَ بالطّاعة.

– بل هو حديثُ حنينٍ يا "رحمَةَ الله"، ولا زيادة.. ولا زيادة.

تدخّل القمرُ مقاطعًا:

– إلامَ حنينُكِ يا أرضُ؟!

– إلى كلّ خلقٍ مرّ بي من خلق المولى سبحانه.

– ولِمَ..؟

– بعضُهم في ذكراهم العجب.. كلّ العجب.

– لكنّا ما رأينا ذاك العجبَ الذي تحكين!

– تغيبُ يا قمرُ، وأبقى أنا، وتغيبينَ يا شمسُ، وأبقى أنا، كلّ شيءٍ محفوظ بداخلي، حتّى حركة النّمل في جحورها، ورزقها الذي تعودُ به، وأُنْسي لها في طريقها.

توهّجتِ الشّمس؛ فبدا هذا وجْهًا من وجوه حماستها، وهي تهتف:

– هل تذْكرين كلّ شيء يا أرضُ؟

أجابت الأرضُ بثقة:

– أنا لا أنسى شيئًا مرّ بي من قدَرِ الله.

– إذًا.. عن دهشتكِ من هذا القدر، تملكين ما تجودينَ به علينا من الحكاية؟!

بثقةٍ تنمّ عن عظيمِ الخبر، وكثيرِه، وعجيبِه؛ أجابتِ الأرض:

– وهل أملكُ غير الرّواية...!

***

أخَـذتِ الأرض زخرفَهـا وازّيَّنَـت، ثُـمَّ اسـتهلّت الحكايـةَ بقوْلها:

- صاغني الله في قالَبٍ من الكَمال، ولا كمال إلّا له سبحانه، فأحسَنَ تصويري، وأتقنَ صُنعي وتقْديري، ولمّا أتى زمانُ خلق "آدم" أمرَ المولى "جبرائيل" أنْ يأتيه بطينٍ منِّي، فلمّا نزلَ عليَّ تعوّذتُ بالله منه، وقد خشيتُ أنْ يُفسد تلك الصناعة البَديعة التي جعلها الله فيَّ، فرجعَ ولم يأخذْ منِّي شيئًا، ثُمَّ إنّ اللهَ بعث إليَّ "ميكائيل"؛ فاستعذتُ بالله منه أن يُنقصَ منِّي شيئًا، فرجَعَ دونما شيءٍ، فأرسل الله إليَّ ملَكَ الموت؛ فاستعذتُ بالله منْه أن يُشينَنِي بشيء، فردّ عليَّ..

"وأنا أعوذ بالله أنْ أرجعَ ولم أُنفِّذ أمرَ ربي"،

فأخذَ من وجهي فخلطَه، ولم يأخذْ من مكانٍ واحد، قبض قبضةً من تُربةٍ حمراء، وبيضاء، وسوداء، وطينٍ لازبٍ، فلذلك خرج بنو "آدم" مُختلفين.

سألَ القمرُ مُتعجّبًا:

– وما ضرّكِ أن يُنقَص منكِ شيء؟

بدا الحنينُ يُرسَم على وجْه الأرضِ فكأنّها تغترف من عبَقِ الذّكرى، وتَسكُب في تفسيرها:

– خشيتُ أن أضيّع أمانةَ حفظي لنفسي عند ربي، وقد أنشأني فأحسنَ النّشأة، وصوّرني فأبدع التّصوير، ولمّا علمتُ أنّه سيكونُ منِّي أصلُ الخلق، وسقاية الإنسان؛ فتركتُ ملَكَ الموت يأخذُ ما يشاء، ويخلطُ ما يشاء، ثُمَّ حمدتُه أنْ جعلني جندًا من جندهِ في صُنع خلقِه.. أفلا أكونُ عبدًا شكورًا!

***

مرّت نصفُ ساعة من بدايةِ وقتِ الكسوف، مازالت حركةُ القمر مُستمرّةً حيث قدّر اللهُ لها أنْ تكون تلك الليلة، مُستقرّة بين الشمس والأرض، كلّ يسيرُ كما كتب الله لَهُ السّير، سأل القمر:

– هلْ من زيادة..؟

– وهل أملكُ يا "صُنعَ الله" إلّا الزيادة؟!

فأتبعَتِ الشّمس:

– إذًا.. زيدينا، واجْعليها ذكرى مِن أدْهَشِ ما شَهدتِ.

أمسكَتِ الأرضُ بطرفِ الحديث، ثُمَّ أخذت بمجمَعِه كلّه، تبسّم جنانُها وهي تحكي:

– ذاتَ مساءٍ، ضَمّ شهادة الحصى والشّجر والرّياح والثّمر، جلسَ "إسحاق بن راهويه" على رأس حلقتِه، يروي حديثَ النبيّ مُحمَّدٍ– صلّى الله عليه وسلّم– لطلّابه، مؤمنًا بربّه، مُحبًّا لرسوله، عازمًا على نشْر كلماته، ورواية حركاته وسكناتِه، نقلَ بصرَه بين الحضور، يغشاه الخوفُ من ضياع الكلمات، وتشغلُه الفكرة في ضبط الرّوايات، ثُمَّ علَت وجهه ابتسامةٌ وهو يرى الصّحف بين يدي تلامذته، والحماسةَ في أعينهم، والحنينَ في أصواتهم، تندفعُ في قلبه نبضاتُ الأمل؛ فيتلفّظ بسرٍّ يحفظُه في صدره مع أهمّ ما يحفظ؛ وإذا به يبوحُ وقد تكالبَت عليه اللّهفة..

"لو أنّ أحدًا انْبَرى لجمْعِ الصّحيح من حديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم"

مرّت الكلماتُ زائرةً على رؤوس الجميع، مُتنقّلةً بين أُذن فلانٍ وفلان، ثُمَّ حطّت في عقل واحدٍ منهم، وصُبَّت في قلبه صبًّا، فالتقتْ همّته بشرَفِ الغاية، ولمَعَتْ في صدره أماراتُ الهداية، نادَوه..

"ما بكَ يا بُخاريّ..؟"

لكنّ عقله وسمعَه وفكرَه وفؤادَه.. كلٌّ قد شُغُل!

بدأ بالفعل، عقَدَ العزم، جمَعَ إيمانه، ولملَمَ أركانه، توكّأ على علمٍ منه قد اغْتَرف، وصحيحٍ به سيُعتَرَف، ومشَى بدربٍ طويل، ركبَ البحر، وسار بالبرّ، وصعد حيث انْتهى أثرُ البَشر، ونزل حيث يجدُ الكثيرَ من الأثر، يطرق أبوابَ خلق الله؛ فيدوّن حديثَ رسول الله، ستّة عشَرَ عامًا يجمع "البخاري" الحديثَ، وما فترَتِ العزيمة، ولا هربَتِ الهمّة، وما باتَ ليله إلّا وبقي

يقينُه مُشتعلًا من ورائه، وما تزداد الصّحف بين أصابعه إلّا ضياءً بـ"حديثِ الرسول"، وما كتب حديثًا بيدِه إلّا وقدِ اغْتسل قَبْلَه وصلّى ركعتين، يصيب النورُ القلبَ فيبلُغُ الجوارح، جمعَ "البخاري" ستمائة ألفِ حديث، ما أخذَ منهم إلّا الصحيح، ثُمَّ عرضَهم على شيوخه، "أحمد بن حنبل"، و"إسحاق بن راهويه، و"يحيى بن معين"؛ فاستحسنوه وشهِدوا بصحّته، وهكذا كان، ولا يزال..

"صحيح البُخاري".

بنبرةٍ تفيضُ تعجّبًا، سألتِ الشّمس:

– مِن كَلِمة؟ كلّ هذا بدأ بكَلِمة!

أتى صوتُ الأرض راضيًا وهي تُجيب:

– نعَم يا "رحمة الله"، ما كان كلّ هذا إلّا بكلِمةٍ خرجت من صدرِ عارفٍ بالله، فتلقّفها قلبٌ مؤمنٌ بالله، فكان من بين يديه كتابٌ، هو.. لله.

بطمأنينةٍ أتى حديثُ القَمر:

– سُبحان مَن رُزق الهِمّة، وأنبتَ الأحلامَ في الصّدور، سبحان مَن أجرى على الشّفاه الحروف، سبحان مَن جعل الكلمة جُندًا مِن جنوده!

***

تمسّكت الشمسُ هذه المرّة بأطرافِ الحديث، وكان عظيمُ ضوئها دلالةَ شوْقِها، وقدْ غلبَت عليها أماراتُ اللّهفة طالبةً:

– احْكي لنا عنْ أعجبِ آيةٍ من آيات الله مع صغيرٍ من أبناء "آدم".

نقلَ القمرُ بصرَه بين الشّمس والأرض، همّ بالاعتراض على هذا السّيْل من الحكي، لكنّه وجدَ أنّ نهر الحكايات الجاري هذا.. يستلذُّ الأولى ويمتّع الثانية، فآثرَ الصّمت راضيًا برضا الاثنتيْن.

بدا السّكونُ قويًّا مُسيطرًا إلّا من حركةٍ خفيفة للأرضِ، بعدها أتى صوتُها يغلبُه رنّةُ حزنٍ وهي تحكي:

– النّداءُ بدا ضعيفًا وهوَ يخرج من بين شفتيها، تسأل بتحيّرٍ..

"يا إبراهيمُ، مَن أمركَ أنْ تتركنا بأرضٍ ليس فيها زرعٌ، ولا ضرعٌ، ولا ماءٌ، ولا زادٌ، ولا أنيس!؟"

كان الوجعُ ينْبتُ على وجه "إبراهيم" كلّه، وصدرُه ويدُه وأقدامُه، مُتهدّجةٌ أنفاسُه، متزلزلةٌ أقدامُه، لكنّ ثباته كان أشدّ مِن كلّ ما يعتملُ بداخله، ويعتلجُ في صدره، أجاب "هاجر" بيقين.. "أمرني ربّي"، وما كان الله ليجعل زوج نبيّه أقلّ منه يقينًا وإيمانًا؛ فردّت على إجابته.. "فإنّه لن يضيّعنا"،

رحلَ الزّوج، وبقيت الزّوجة و"إسماعيل" مِن خلفه، دقائقُ وعَلا صوتُ الصّغير، يرتجف تحنانًا.. لأمّهِ، وغذائهِ، وهنائهِ، تحتَ الشّمس لا فِكاكَ لمثله!

طارَ قلبُ "هاجر" شفقةً به، وأسًى عليه، عَلا صوتُ الصّريخ؛ اُعْتقِل لسانُ الأُمّ، وتلجلجَ منطقُها، فزعت قدمُها، خانَها دمعُها، ثُمَّ لمّا مُزّقَت كتائبُ صبرها، وضاقت بها مذاهبُ أملِها؛ قامت قيامةَ الفارّ من الموتِ الزاحف للحياة، انطلقتْ حتّى صعدتِ

"الصّفا" لتنظرَ هل ترى شيئًا، وإسماعيلُ مِن خلفها يزدادُ ظمأه؛ فيدحضُ مِن فوقي بقوّة، ثُمَّ لا تجدُ المفزوعةُ شيئًا؛ فتنحدرُ إلى الوادي، وتسعى حتّى تصعدَ "المرْوة" فلا ترى شيئًا، فعلتْ ذلك سبْعَ مرّات، وصراخُ ابنها مِن خلفها ينهشُ قلبها، ويدكّ حصونَ ثباتها دكًّا..!

مازال الصّغير يدكّ المكانَ بقدمه، والبكاءُ لا يفارق صوته، متروكًا هو وحده، لكنّي آنسُ وحدتَه، وما علمَ أحدٌ بما يتحرّك داخلي، وأنّ الله قد أجْرى فيَّ نهرًا ينْسابُ بين بواطني وأرْكاني، لا درايةَ ببدايتِه، ولا علمَ لنهايته، باردٌ، عذبٌ، طيّبٌ، مُرسلٌ برحمةٍ من الله، يضربُ "إسماعيل" هذه المرّة ضربةً قد جمعَ فيها كلّ جوعِه وعطشِه وحاجته لأمّهِ مُوجِعًا كلّ شواهدي؛ فيتفجّر الماءُ من تحت قدمِه!

عادتْ "هاجر" تجرّ أذيالَ الوهن، لا صبرَ بها، لا قوّة فيها، لكنْ مازال الأملُ فيها يزحف زحفًا هزيلًا لا ينقطع..

فزعَتْ مِن مرأى الماءِ وهو ينبعُ تحتَ قدمِ ابنها، وآثار ضربِه، وكأنّه قد هدّ رؤوسَ الجبال، فأرقلتْ إلى الماء تزمّه زمًّا، وتلمّه لَمًّا، تخشى أن يزيدَ فيفيض، ولو أنّها تركتْه لكان نهرًا على ظهْري جاريًا حتّى قيام الساعة.

الطّير في سمائي سمِعَ صوتَ الماء فطَارَ إليه، وشمّ رائحتَه فنَزَل عليه، وذاقَ طعمَه فمكَثَ لديْه، ولمّا ارتوى عاد إلى وادٍ قريبٍ يسكنه، وكان اسمُه "جُرهم"، فتتبّع أهله طريقَ الطير الرّائح والغادي، حتّى وصلوا لـ "هاجر" و"إسماعيل"؛ فاستأذنوها في الماء فأذِنَت، واستأذنوها في المجاورةِ فأذِنَت، فاستأذنوها بالزوّادة والزّيادة والمُكْث والإفادةِ فأذِنَت.

عندَ هذا البوْحِ من الأرضِ؛ ازدادَ وهجُ الشّمسِ، وفَارَ فيها الجمرُ وهي تهتِف:

– في ذاك اليوم تمنّيتُ لو أنّي أمنعُ حرارتي عنهم؛ فيكون النّور لا النّار، لكنّي مأمورةٌ بالطّاعة؛ فراقبتُ ساعةً حتّى أرسل اللهُ رحمتَه التي ستبقَى إلى قيام الساعة.

تلقّفتِ الأرضُ جُملةَ الشّمس القاصرة عن الإدراكِ، ثُمَّ ردّتها عليها بجُملةٍ تحمل نورَ الفهْم:

– أوَما فهمتِ يا "رحمَةَ الله" سرّ الحكاية؟!

فلوْلا الطّير ما أقبلَتْ "جُرْهُم"، ولوْلا "زمزم" ما أقبَلَ الطير، ولوْلا "إسماعيل" ما تفجّرت "زمزم"، ولوْلا "إبراهيم" ما تُرِكَ "إسماعيل"، ولوْلا غَيْرةُ "سارة" من "هاجر" ما خرج "إبراهيم" إلى "مكة"!

فكمْ مِن جندٍ من جنودِ الله سُخّروا ليكونَ مثل هذا الخير المُرسَل؟!

***

توسّط القمرُ– ذلك الكُرّي البديع– موقعَه بلطفٍ، وأرْخى عتمتَه على الشّمس حاجبًا شعاعها، مُسبّحًا الخالق، قائلًا بخشوعٍ وفضولٍ اجتمَعَا في حروفهِ:

– هذا التدبّر الذي تعْنِين يا أرضُ يغيّر تكويني تكوينًا آخرَ، فيجعلُ بين جنبيّ حالًا غريبة لا عهدَ لي بمثلها؛ فأرى الأشياءَ

بغيرِ العيْن التي أراها بها، وأجدُ فيها من المعاني المؤثّرة ما يملأ عتمتي ضياءً، ويذْهبُ بظلمتي كلّها، ويُحيلني شمسًا من نور، لا نارٌ فيها ولا شرور.

أتبعَتِ الشّمسُ كلماتِ القمر بكلمات، وأضفَتْ لمعانيه بعضَ النّفحات؛ فتحدّثت:

- لا إنكار للطّاعة وقد أمِرْنا بها، ولا بأس بالفكْر ولم نُمنَع عنه، فمِن مأمورٍ إلى مأمورٍ؛ زيدينا تدبّرًا في أقدار الله يا أرضُ.

أتَى صُدَاحُ الأرضِ مستبشرًا راضيًا وهي تحكي:

- كانت في أنفاسِه رَتابة، لا خلخلة فيها ولا زلزلة، رجلٌ علِمَ مِن ربّه أنّ كلّ شيءٍ بقَدَر، فاطمأنّ؛ فنام، ولمّا سمع قَوْلة السّلام؛ قام، فأقام اللهُ الحياةَ فيه ومنْه، وردّ على زائرِه سلامًا بسلام.

قال الزّائر.. "أنا موسى".

فسأله.. "موسى بني إسرائيل؟"

قال زائرُه.."نعم".

فما ارتجفَ ولا اهتزّ، أتاه خلقٌ من خلق الله، فحيّاه وأكرمه وقال.. "يا موسى، إنِّي على علم مِن علم الله، علّمنيه اللهُ لا تعلَمُه، وأنتَ على علمٍ من علْم الله، لا أعلمُه".

فطارَ قلبُ "موسى" فَرحًا هاتفًا.. "فإنّي أتّبعك على أنْ تعلّمني ممّا عُلّمتَ رشدًا".

فاشترطَ "الخِضر" عليه اشتراطًا من صبرٍ..

"إنْ رضيتَ اتّباعي؛ فلا تسألني،

فإنّي لا أُخبرُك حتّى يحلّ وقتُ الإخبار"

معلومٌ أمرُ الصّبرِ، لكنْ يجهل الإنسانُ كيفَ يكبَحُ جمْرَه، ويكتمُ نارَه، وكلّ ما يدورُ ليس إلّا وقودًا له!

- انطلقا يمْشيان على ساحلِ البحر، ثُمَّ رَكِبا سفينة، فجاء عصفورٌ، طار ثُمَّ استقرّ إلى حرفِها؛ فنقر في الماء نقْرَة، لم تحملْ إلّا قطرة!

فقال "الخضر"..

"يا موسى، ما ينقصُ علمي وعلمُك من علمِ الله إلّا مقدار ما نقرَ هذا العصفورُ من البحر".

فسبّح "موسى" ربّه، وعدّد في نفسه رزقَه وقدّره، ثُمَّ وجد صاحبَه وقد قامَ إلى السّفينة يوتّد فيها وتدًا، أو ينزعُ منها خشبًا، فقام "موسى" إليه فزعًا مُستنكرًا، وأقبل عليه عاتبًا متذمّرًا، وهمس مُنبِّهًا..

"حملونا دونَ مال، وتخرقُ السّفينة فتُغرقُ أهلَها؛ لقدْ جئتَ شيئًا إمرًا".

فنظرَ "الخضر" إليه نظرةَ استنكار يُذكّره فيها..

"أتذكُر قوْلتي الأولى إليك،

وتنبيهي السّابق عليك؟!".

فعادَ "موسى" نادمًا مُعْتذرًا إلى مكانه، فغفَرَ له "الخضر" ما أتَى منه نسيانًا، ولمّا نزلَا عن السفينةِ، وسارا بأرضٍ قدِ افْترشها أهلُها، ويلعبُ في الأنحاء صبيانُها، فأخذ "الخضر" أحدَ الأبناء،

وسارَ به، و"موسى" يصحبُه، ولا يسأل كما اتّفقَا، ثُمَّ في إحدى الزّوايا توقّف، وأمسك برأس الفتى؛ فقتلَه..!

بُهِتَ "موسى" واهتزّ اهتزازَ فزعٍ وهو يرى الطفلَ مقْتولًا أمامَه، أنفاسُه تختنق ألمًا وجزعًا وحزنًا؛ صرخَ بكلّ ما أوتي من قوّة..

"ماذا فعلت! أتقتلُ نفْسًا خلقها اللهُ بغيْر ذنبٍ؟! لقد جئتَ شيئًا نُكْرًا!"

فنظرَ "الخضر" إليه نظرةً قد ملأها اللّومُ وهو يجيبه..

"أتذكُر أنّني قلتُ لا تنسى، فهَا قد نسيت،

وقلتُ لا تسَلْ؛ فكمْ مرّةٍ سألتَ وما دَريت؟!".

فارتدّ "موسى" إلى نفْسِه نادمًا على تسرّعه، مُحتفِظًا بكلّ تساؤلاتِه داخلَ صدْره، مؤكّدًا على أذن صاحبه..

"لا أسألكَ شيئًا بعدَها، وإنْ فعلتُ فاترْكني،

وهذا وعْدي إليكَ أقدّمه، خذْهُ فإنّي عليمٌ بما سأخسره".

فغفَرَ له "الخضر" ما أتى منْه إنكارًا، ولمّا انطلقَا أتَيَا قرية، وكانَا قد سارا دونَ راحةٍ أو طعام، فسألا أهلَ القرية زادًا يتَقوّيان به ومنْه، فما لبّى طلبَهم أحدٌ، بل وردّهم الجميعُ دون معونةٍ أو مؤونة، فسارا حتّى ركنَا إلى حائطٍ يحْتَمون به، لم يمرّ الوقتُ حتّى قام "الخضر" إلى ذلك الحائطِ، وكان قد قاربَ على الانْهيار والهدم، فشدّ عن ساعدِه، وجمع منّي ما جَمَع، وخلطَ بي ما خلَط، فصنع منّي طينًا، ثُمَّ أتى الحائطَ وعَجَنني فيه، وأدْخَلني في فتحاتِه وأركانه، وبين طبقات صخورِه وأحجاره، حتّى أقام الحائط، ولم يجعَلْ للهدْمِ عليه سبيلًا!

فاستنكرَ "موسى" فعلتَه، وهتف به..

"طلبْنا الزّادَ فردّونا، وطلبنا السّكنَ فطرَدونا، ثُمَّ تُقيم لهم حائطَهم! فلو أنَّكَ تطلبُ المالَ عنْ جهدكَ هذا"

هُنالِك.. أتى صوتُ "الخضر" مُعاتبًا، ومؤنّبًا صاحبَه..

"الآن.. الآن يا موسى، آنَ أوانُ الفراق بيننا،

وما كانَ من الخبر السّابق؛ فإليكَ كلّ الأجوبة".

صُدِمَ "موسى" ولم يملكْ أن يردّ، ولم يستطعْ أن يطلب منه صبرًا آخرَ، يومًا آخرَ، فهذه المرّةُ هو مَن اشترطَ على نفسِه أنّها الأخيرة، فسكتَ وقد أكَلَه الحزن.

وعنْ أوّل التّساؤلاتِ أتى توضيحُ "الخضر"..

"أمّا السّفينةُ كلّها.. فمصيرُها كان الهلاك، والمَلِك مِن ورائها، فأفسدتُ فيها بعضَها ليظهرَ منها أنّها ليست أهلًا للامْتلاك، والمساكينُ أهلُها ليسوا أهلًا للعِراك..

وأمّا الغلام فكان أبواهُ مؤمنيْن، وخُلُقه معهم شَنيع، فأرادَ ربّكَ- رحمةً- أنْ يذهبَ بالطّفل الوضيع..

وأمّا الجدارُ فكان للأيتام وحدَهم، وكان في الأرض كنزٌ لهم، فأرادَ ربّك أنْ أُقيمَه حتّى يكون حصنًا عبْرَ السّنين، فإذا ما شبَّا، واشتدّ عودُهُما؛ أتياه فاستخْرَجاه، وهذا لأنّ أباهما كانَ من الصّالحين".

هُنالِكَ انقطعتِ الأرضُ عن الكلام ساكتةً، فتلفّظ القمرُ لائمًا:

- لوْ أنّ "موسى" عليه السّلام سكت؛ لكانتِ الزّيادةُ في العلم.

فاعترضَتِ الشّمس:

- ألَا ترى أنّ هذا هو تمامُ العلْم؟!

فهُناك عِلمٌ يُحتمَل، وهُناك عِلمٌ لا يُحتمل،

أرَى ممّا جرى- والرّؤية كلُّها لله- أنّ المولى قد أرسل "موسى" إلى "الخضر" ليتعلّم؛ فتتعلّمَ معَه أنْ..

ليستْ كلّ المعرفة يجبُ أن تُطلَب، فها هو لمْ يحتمِل ذلك القدْرَ من العلْم في أكثرَ مِن موضعٍ، فلو أنّ ذلك العِلم الذي اختُصّ به " الخضر" كان مُرسَلًا من البدايةِ إلى "موسى" لَمَا تحمّله ولا أدْرَكه.

نطقَتِ الأرض:

- لعلّ في كلماتكِ دلالةً من شمسٍ يا شمْس، وهذا كلّه ممّا لا نُحِط به علمًا، فاحْمَدوا مَن جعل في إفسادِ وجْه السّفينة حياةً لأهلِها، وسبّحوا مَن جعَلَ في قتلِ طفلٍ رحمةً لأهله، ومجّدوا مَن جعَلَ في إقامةِ جِدارٍ حفظًا للمالِ والعيالِ، وعظِّموا مَن جعَلَ في

"الخضر" جندًا من جنودهِ المُرسَلة.

هُنالِك همَسَ القمر:

– سبحانَ مَن أرسل "موسى" وعلّمه!

وسبْحانَ مَن علّم "الخضر" وفهّمه!

وسبْحانَ مَن جعلَ الأرض شاهدًا وأنطقه!

سبحانَه مِن إلهٍ قديرٍ ما أعلمَه!

***

بفضولٍ يزدادُ لهيبُه، سألتِ الشّمس:

– ما أحبُّ الذّكريات إليكِ؟

فكّرتِ الأرضُ قليلًا، دقائق حتّى خرج صوتُها ضاحكًا رويدًا رويدًا وهي تُخبر عنْ نفسها:

– كلّ نَصيبي من الحياةِ التي وضعَها الله فيَّ، وفيمَن حولي، تنالُ مِن محبّتي الشّيء العظيم، كرؤيتكِ حينما تتتابع خيوطُكِ

الذّهبية الرّاقصة في سمائي، ثُمَّ أرى القمرَ وشعاعَه يهمّ أن يسيلَ على جوانبه سيلًا، وتلمعَ النّجومُ في الفضاء كعيون فضيّةٍ تسرق الرّؤية من فروجِ قميصِ الليل، ثُمّ يحلّ الليل ويهوي بأجنحتِه السّوداء كأجفانٍ تُغلق على عين صاحبِها فتُسكنُ مواجعَه وإرهاقَه، ويأتي الفجرُ فأرى بياضَه وهو يدبّ في جناحِ الظّلام، كلّ هذا أحبُّ، لكنْ يُدهشني عجيبُ قدَرِ الله في خلقِه.....

في يومٍ من عامِ ألفٍ وتسعمائة وثمانية وخمسين، أرادت دولةٌ اسمُها "فرنسا" القضاءَ على كلمةِ الله بأرضٍ قدِ احتلّتها منذُ ما يزيدُ عن القرن، بعدما عُقِدت المؤتمراتُ والدّراسات على مدارِ سنوات، وأقيمتِ النّدوات والمحاضرات، حتّى توصّل علماءُ النّفس والطبّ والتّاريخ.

أنّ الكيفيّةَ الوحيدة للقضاء على الإسلام، هي بالقضاء على هويّة أهله، فاتّفقوا على إقامةِ تجربةٍ بسيطة، مهْما كلّفتهم هذه التّجربةُ من عُمرٍ ومالٍ وولدٍ، فالمهمّة في نظرهم جليلةٌ، والهدفُ أسْمى من أيّ تفكير. اختارت "فرنسا" عشْرَ فتياتٍ جزائريّاتٍ صغيرات،

أخذتهنّ وألحقتهُنّ بمدارسها، وأسكنتهُنّ في منازِلها، وصبَّت في عقولهِنّ الثقافةَ الفرنسية، ثُمَّ أتبعتها بالزيّ الفرنسي، وحبّبت إليهنّ التقاليد الفرنسية، والعادات الفرنسيّة، كبرتِ الفتياتُ، وقد شبَبْن على كلّ ما هو فرنسيّ، أحد عشَرَ عامًا تأخذُ منهنّ هويّتهنّ، وتصبّ بالفتيات هويّةً فرنسيّة خالصة!

أتى اليومُ المُنتظَر، يوم تخرّج الفتيات، فقد كبرْنَ وصرْنَ سيداتٍ فرنسيّاتٍ راقيات، وآنَ أوانُ التّباهي بهنّ، وإعلان النّصرِ أمام الجميع، إعلان أنّ "فرنسا" أكبرُ من أيّ هويّة، وأنّها نجحتْ في مسْخ الإسلام داخلَ صدورِ الفتيات حتّى نسخَتْه، وبدّلته بدينٍ أفضلَ منه!

هكذا كان يتدرّب العلماءُ والأساتذة على خطاباتِ انْتصارهم بعدَ إعلان الفوزِ بالحرب؛ الحرب على الهوية!

بدأ الحفلُ، وأقبلَ المدعوّون من كلّ مكان، وجاء المسئولون، والصّحافة، الكلّ بانتظارِ اللّحظة الفاصلة القاسمة، ودخلتِ الفتيات.. بلباسهِنّ الجزائريّ غيرَ كاشفاتٍ لرؤوسهِنّ، ولا أجسادهن!

صَمتَ الحفل، وصُدِم الجَمع، لم يدرِ أحدٌ ما حدثَ للفتيات، ولا ما اعْتمل برؤوسهنّ، بيْدَ أنّ الحضور كلّه قد هاجَ وماجَ واضطرَب!

مَن يلومُ مَن؟!

على مَن يقعُ الخطأ في فسادِ الخطّة وضياعِ الأموال والجهد والسّنوات؟!

أصابعُ الاتّهام تُشير إلى الجميع بلا هوادة، لا أحد يعترف، لا أحد يريدُ تحمّل الذّنب، بعدما خرجتِ الصّحف الفرنسية كلّها تثور، وتدورُ فيها أسئلةٌ تُذيب الدّولة حرجًا على حَرَج، وتسأل..

"فيمَ نجحتْ فرنسا بعد مائةٍ وثمانيةٍ وعشرين عامًا بالجزائر؟"

هُنالِك خرجَ وزيرُ المستعمراتِ الفرنسي يجرّ أذيالَ الخجل وهو يُجيبُ الصّحف، مُستنكرًا عليهم، مُشفقًا على نفسِه:

"وماذا أصنعُ إذا كان القرآن أقْوَى من فرنسا؟!"

لو كانَ للقمرِ جسدٌ لقفَزَ به من شدّة الضّحك، وإنْ خَلق اللهُ للشّمسِ يدًا لَلْتَهبتْ من كثرةِ التّصفيق، كان الموقفُ لهم ممتعًا لطيفًا، سأل القمر:

– كلّ هذه السّنوات ولم ينتبِهْ أحدٌ إنْ كانت التّجربة ناجحةً أم فاشلة!؟

أجابتِ الأرضُ بجديّة:

– ربّما أعْماهم اللهُ يا "رحمَةَ الله"، أو لعلّ الصحوةَ جاءت للفتياتِ بالنّهاية، كلّ هذا من علْمِ الله المُخبّأ عنّا، لكنّ ما أعلمُه يقينًا، أنّ مع النّتائج غير المتوقّعة يكون الانتصارُ حينها أوقعَ أثرًا، فسبحانَ مَن جعل تجربةً للتجرّئ على محاربة الإسلام تنْقلبُ لتكونَ دلالةً من دلالات قوّة هذا الدّين!

سبحانَه سبحانَه!

***

في دقيقةٍ من سكون، سكتَ الثّلاث، ربّما ليتدبّروا.. ليتذكّروا، هذا الفلك الذي هُمْ فيه، لا يخرجونَ منه، لا يَحيدون عنه، لا يتملْمَلون فيه..

دوَراتُهم محسوبة، أقدارُهم معقودة، أفكارُهم ممْدودة، تراصّهم المُعْجِز هذا، لقاؤهم المُحبّب هذا،

تالله كيفَ للأقدارِ أن تكون عليهِم أرحمَ مِن هذا؟!

همسَتِ الشّمس:

– أحمدُ اللهَ أنْ خلقني مأمورة، فلا أُسقِط أو أُسقَط، لا أُفتِن أو أُفتَن، هذا التّخيير والاختبارُ يؤجّج النّار بداخلي، فلو أنّي خُلقتُ خلقًا آخرَ برزقٍ آخر، هل كنتُ سأنجح أم أكونُ مِن الخاسرين؟!

لم يُعلّق القمر، وكأنّما يدور بأركانهِ نفسُ السّؤال، أجابتِ الأرضُ بحزمٍ:

– ربّما تتفاجئينَ يا "رحمةَ الله" من نفسِك، فما أعطى الله تكليفًا لأحدٍ إلّا وأعانه عليه، فمنذُ خُلقتُ حتّى اليوم، لم أشهدْ إلّا عوْنَه ولطْفَه،

اختباراته وابتلاءاته، لا تنزل إلّا لتهذيبٍ أو تكفير ذنبٍ أو رفْع مكانة، أو حكمة يعلمُها سبحانه.

عادَ السّكون مُسيْطرًا، على غير عادته.. سألَ القمرُ بعد دقائق معدودة، وكأنّه كان ينتظرُ من الشّمس أنْ تكْفيَه مؤونة الطلب:

- يا أرضُ، حكاياتكِ.. ألَا من مزيد؟

- بلى، أزيدُكَ يا "صُنعَ الله"، أزيدك...

في إحدى صباحات "ديسمبر" من عام ألفين وسبعة..

برتابةٍ كانت تتحرّك شابّة في الخامسة والثّلاثين من عمرها، لمْ تعدْ تشعرُ بأهميّة الوقت، أو حتّى بفائدته، تستيقظ لعملها صباحًا فهي معلّمة، ثمّ تعود لمنزلها وتقضي وقتَها بين مشاهدة التّلفاز، أو تصفّح الإنترنت، أوْ لاهيةً بين أصدقائها وصديقاتها، يبدو التّأفّف جليًّا على وجهها كلّ يومٍ وهي تتلقّف ضوءَ الصّباح في بدايته، ثُمّ يتجلّى في صوتها، وهي تندُبُ نصيبها أنْ تُضطرّ للتّعامل مع مثلِ هذه العقليّات المُتأخرة من حولها!

في يوم ووسطَ صحبةٍ منْ زملائها وزميلاتها.. كانَ المللُ قدْ أرسى حبالَه داخل نفسها، وسيطر على همساتها وخلجاتها، فاقترحتْ- وكمحاولةٍ منها للرقي- قائلة..

"في بعض التعليم الغربي أمورٌ قدْ تعودُ بالفضل على طلّابنا مِن المرحلة الإعدادية المختلطة"

ثُمَّ اقترحت إقامة مسابقة شعْرٍ عن العشق، يتحدّث كلّ طالب عن أكثر ما يؤجّج حديثَ قلبه، ويهيّج مشاعرَه في هذه الحياة!

لاقى الاقتراحُ اعتراضًا من إدارةِ المدرسة، لكنْ سرّب أحدُهم الفكرةَ داخل فصْلها؛ فلاقتِ اسْتحسانًا وترحيبًا من الطلاب، منهم مَن وجَدَ في الأمر فرصةً، ومنهم مَن وَجَد به تسلية، ومنهم...

ألحّ عليها تلامذتُها أنْ تخوض معهم تلك التّجربة التّثقيفيّة؛ فوافقت، لمْ يستطعِ الطلّاب أنْ يكتبوا عنْ والديهم، أوْ عنْ إخوتهم، فالوالدان لم يكونا يومًا سببًا في تأجّج المشاعر عند كثيرٍ من هؤلاء الطلاب!

حرصتِ المعلّمة أنْ تحاورَ الطّلابَ وتناقشَهم في أمور قد تُعينُهم على فهْم الإعجاب والحبّ، قانعةً أنّها تُساعدهم في تفْتيح عقليّتِهم، وزيادةِ اسْتيعابهم لمثْلِ هذه الأمور في مثل هذا العُمْر، مؤمنةً أنّ كلّ هذا سيكونُ تحتَ عينِها وبمراقبتها.

مرّ شهرٌ وهوَ مقدارُ المُهْلة التي أعطتْها المعلّمة لطلّابها، حاول الفتيانُ خلال هذا الشهر التقرّبَ مِن الفتياتِ ليجدوا مادَّةً غنيّةً بالمعلومات؛ فيكتبوا الموضوع الذي طَلبتْه منهم المعلّمة، وفي المقابلِ حرصتِ الفتياتُ على اغْتنامِ الفرصِ ليجدْنَ هنّ أيضًا ما يكتبْنَه للمعلّمة، وجاءَ اليومُ الموعود..

سألتِ المعلّمة..

"مَن أنْهَى موضوعَه؟"

رفعَ أغلبُ الطلّاب أيديَهم، خرجتْ كلماتُ السّعادة والبِشْر من بيْنَ شفتيْها..

"رااائع، الآنَ بالتّرتيبِ سيخرجُ طالبٌ ليقرأ لنا ما كَتبَ، وعندَ انتهائه يقيّمُه باقي الطّلاب، ثمّ يخرجُ الطالبُ الذي يليه، وهكذا..."

خرجَ الطّالبُ الأوّل، وبقلقٍ تعرّق، والخجلُ مِنه يترقرق..

"معشوقتي هيفاء.. يعلوها الضياء

أضطربُ عندَ اللقاء.. وأتعرّقُ في الشّتاء"

ضحكتِ المعلّمةُ مِن كلماتِ الفتى، وقيّمَ الطلّاب شِعْره.. بـ خمْسِ درجات.

خرجت هذه المرّة طالبةٌ، وبنظراتٍ خجْلى، وابتسامات وجْلى..

"معشوقي أستاذي.. أراه في الصّباح

يعلّمني فأتعلّم.. وأترقّب النجاح

سألتُ نفسي قبْلًا..

هل سيتزوّجني وأرتاح؟

أمْ أنّ حلمي غير مُباح!"

اضطربتِ المعلّمة من أبيات الفتاة، تلفّتت حولها، وجدتْ بعضَ الاسْتهجان على الوجوه مِن حولها، والبعض الآخر قيّم قصيدتَها بـ سبْع درجات.

خرجَ الطّالب الثّالث، وبعنفوانِ شبابه، وجرأة لسانِه..

"معشوقتي يا سادة.. أستاذةٌ في الحبّ

تراني قادمًا.. فتفرشُ لي الدّرب

أعشقُها من قلبي.. ما دام بقلبي نبْض"

سَعِدت المُعلّمة كثيرًا بأبيات الفتى، توقّعت المثْلَ من الطلاب، لكنّ الغريب أنّ التّقييم جاء بـ ثلاث درجات.

وتوافدَ الطّلاب الواحدُ تلو الآخر...

طالبة:

"معشوقي زميل.. ووجهُه جميل

وإنْ أتى الشّتاء.. يقْرِضني منديل"

طالب:

"معشوقتي لمياء.. بجَمال صارخ

خدودٌ حمراء.. وقوامٌ شامخ"

وتوالت التّقييمات.. خمسة.. سبعة.. ثلاثة.. واحد.

حتّى جاء آخرُ طالبٍ بالفَصل، اتّجه للمقدّمة أمام الطلاب، والمُعلّمةُ فرحةٌ بهذا التّقدم الذي أحرزتْه مع طُلّاب فصْلِها، ونجاح خطّتها في انتهاجِ أسْلوب الغرب المُتقدّم والأكثر ثقافةً في التّعليم.

أقبلَ الفتَى بتواضعٍ غريب، وتبسّمٍ مُريب...

"معشوقتي جميلة، ولا يُنكرُ هذا أحد

سوداءُ رقيقة كليلٍ أظْلم واتّحدْ

تمنّيتُ منها نظرةً لكنّها لا تنظر لأحد

كمْ أحلم بضمّةٍ فأكتفي منها لِلحد

في عشقها؛ كلّ عاشقٍ يرد

وبقُربها تخشع الأبصارُ للأبد

أراها كلّ يومٍ فيزدادُ بكائي ويشتد

لم يَخلُقِ الرّحمنُ أفضلَ منها في الجسد

فجسدُ معشوقتي يلهِبُ القلبَ الصّلد

شجوني يزيدُ كلّما زادَ الوجـد

عزّي أكيدٌ فمعشوقتي بـ خيرَ البلد

هي كعبةٌ زُرتُها..

فانْخلع فؤادي ولم يعُدْ!

لم يكَدِ الفتى يُنْهي أبياته حتّى انتفضَ معظمُ الطّلاب، والتفّوا حولَه يحيّونه ويشجّعونه، التفتَ هو إلى المعلّمة، فرأى دمعاتٍ مُختبئاتٍ بعينها، تتسابقُ لتسقط على وجنتَيْها، أخفت وجهَها وهي تنظرُ إلى الورقة بِيَدها مُتكلّمة..

"أعتقد أنّه لنْ يُخالفني أحدٌ القول.. أنّك تستحقّ التقييم كاملًا يا بنيّ".

انتهى اليومُ الدّراسي، عادت المُعلّمة لمنزلها وقد اشتعلت حماستُها، أقبلتْ على الهاتف، وحدّثت البنكَ لتعلم مقدارَ ما

حفظتْه بحسابِها، اتّصلت بأخيها، وبعد السّلام وكثيرِ الكلام، سألت بجدّية:

"أما زلتَ عند عرضكَ الذي تعرضُه عليّ كلّ سنة يا أخي بأخْذي معك للعُمرة؟"

انتهتِ المُكالمة وقد تملّكت السّعادةُ من وجهها وقلبِها وعينِها ويدها وقدمِها، فتركتِ الهاتف يُغلق، وروحُها تدبّ بداخلها دبًّا لطيفًا غيرَ مألوف، فتحت أحدَ الأدراج وتلمّست صورة قديمةً كانت والدتُها تحتفظ بها وهي عندَ الكعبة، تحسّستها بأطرافِ أصابعها، مسحَتْ ما عليها من غُبار، همسَتْ لنفسها قبلَ أن تكون حروفُها للصّورة بين يديها.

"عشقكِ ذاك الفَتَى من كلّ قلبِه، وعِشْقُه؛ تَوَّبَني!"

ثُمَّ سكتت، تُسقِط دمعًا؛ فيغسلُ أثرَه دمعٌ آخر.

بحشرجةٍ بدا صوتُ القمر مُضطربًا، يتساءل وقد طغتْ عليه رنّة الفُضول:

– ما مذاقُ البكاءِ يا أرضُ؟ هل تعرفين؟

- لم أذرِفْه لكنّي أعرفُه، ماءُ العين مذاقُه مُختلف، يقول البشر إنّ البكاءَ مالح، لكنّي أعلمُ عنْه ما لا يعلمون.

فمذاقُ البكاء يختلفُ باختلاف سببِه، فالعينُ التي تبكي من خشيةِ الله يكونُ لمائها بين طينيّ ورمليّ مذاقُ الغيث!

والعينُ التي تبكي من الفقْد يكونُ لمائها مذاقُ "النّيل" الذي يجري بِمصْر!

والعينُ التي تبكي من الظّلم يكون لمائها مذاقُ "زمزم"!

أوَلم تتساءل يومًا.. كيف أنّ دعاءَ المظلُوم لا يُردّ يا "صُنعَ الله"؟!.

***

تدخّلتِ الشّمس مُتممةً هذا الحكي:

- ما البكاءُ؟

- هوَ كلمةٌ لكنْ لم تُخلَق من حروف؛ لذا لا يستطيع البشرُ البوحَ بها إلّا دمعًا!

عصيّةٌ على ألسنتهم، ثقيلةٌ على أنفاسهم، لا يحتملُ جريانَها إلّا العين!

وبكلّ ظمأ العالم إلى السّقيا طلبَتِ الشّمس:

- احْكي لنا عن البُكاء يا أرضُ.

وحدَها تعلم كلّ الحكايات، يُسدلُ الفخرُ رداءه عليها، فتمتلئ على إثرِه زهوًا بقصَصِها، ثُمَّ تستهلّ القصّة هذه المرّة بادئة:

- في مطلع عام ألفيْن وعشرة، بأحدِ المحالّ التّجارية والتي كانت تضمّ بعضَ التّجمّعات الشّبابية، أتى الحوار شيقًا عاليًا، صاخبًا، يتنافسُ الجميع في إثباتِ ذاك الرّأي الثّاقب الواثق في موضوعٍ لا يستحقّ إعطاءه دقيقةً من الوقتِ، والذي لو توقّفت الصّراعات ثوانٍ وخفتتِ الأصوات؛ لأدركوا أنّ كلّ الآراءِ تفيدُ نفسَ المعنى!

لكنْ لا أحدَ يستمعُ لأحد، بَيْد أنّي أؤمنُ أنّ الأجيال الجديدة من البشَرِ تحتاجُ لقول كلّ ما عندها، وإلّا ستُدمّر الإنسانية القابعة

فيهِم، لكن مع ذلك، أؤمنُ أكثرَ أن ليس كلّ ما في الرأس يستحقّ أنْ يُقال.

عَلَا صوتُ توقّف سيارةٍ بالخارج، كان لصريخِ عجلاتِها دويّ مزعجٌ، ثُمّ كان اقتحامُ أحدهم للمكان بدويّ أكثرَ إزعاجًا؛ فأيقنتُ أنّ صاحب العجلاتِ هو صاحبُ الأقدام!

تجوّل جسدُه بالمكانِ، يتحسّس كلّ القطع المعروضة، الأنيقة والعَتيقة، المتهالِكة والحديثة... توقّفت أقدامُه أمامَ قطعة؛ جذبَها بعنفٍ، ثُمّ هتفَ بصوتٍ خَشِنٍ.. "أريد هذه".

كانت قطعةً رخاميّة صغيرة مُجهّزة ليُكتَب عليها اسمُ مفقودٍ أو راحلٍ أو ميّت!.

أقبلَ شابّ إلى الرّجل، نظر إلى وجهه، لم يستطعْ تفسيرَ مشاعرِه، أخرج له فاتورةَ الحساب، تسلّم منه المال، ولمّا أرادَ أن يردّ الباقي إليه، أعادَه الأخير طالبًا منه أن يحتفظ به!

مازال وجهُه مُتجهّمًا لا أثرَ للشّعور فيه، قال الشابّ بصوتٍ هادئ حانٍ.. "البقاءُ لله يا سيدي".

سكنتْ حركةُ الرّجل عند سماعه هذه التّعزية، أطرقَ رأسَه أرضًا بضعَ ثوانٍ، ثُمَّ رفعَها، كانتِ العبراتُ مُتحجّرة بعينه، لا هي تفرّ ولا تقرّ، ثابتة لا تتحرّر.

لم يردّ على الشّاب، ومضى حاملًا القطعةَ الرّخاميّة وغادر..

عادَ لسيّارته، ركِبَ بالمُقدّمة، في الخلفِ دار حديثٌ هامسٌ بين رجُليْن..

"سمعتُ أنّ الفقيدةَ كانت سيّدةً قاسية".

فأجابَه صاحبُه بصوتٍ أكثرَ همسًا..

"جدًّا يا رجل.. جدًّا، مؤكّدٌ أولادُها الثلاثةُ ارْتاحوا برحيلها".

سألَه الرّجلُ مُستنكرًا..

"لهذه الدّرجة؟!"

"وأكثرُ يا رجل، أكبرُ أولادها في الخامسة والثلاثين، وأصْغَرهُم في العشرين، ولا أذكرُ أنّي رأيتُ طوالَ حياتي أولادَها يلعبون يومًا، أو يسْهرون مع أولادِ الحيّ أو يُشاركون في أيّ نشاطٍ لهم، صدّقني لقد ارتاحوا".

"وماذا كانوا يفعلون؟!"

"كانتْ إجابتها دائمًا.. "لا يمكنُ لأولادي أن يلعبوا بالطّرقاتِ؛ فأنا أجهّزهم لأمورٍ أكثر أهمية"

"وماذا كانت الأمورُ الأكثر أهمية؟!"

تفلّتت ضحكةٌ خافتة من فمِ الرّجل قبل أن يحاول كتمَها، وهو يجيبُ صاحبه..

"والله ما رأيتهم يومًا يصنعون شيئًا ذا أهمية أبدًا".

"إذًا كلّ هذه السّنوات وهي تقسو على أولادِها دونَ فائدة تُرجَى في النّهاية!"

التفتَ أحدُ الرّكاب بالمقدّمة على إثر الضّحكة الخافتة، شعرَ الرّجلُ ببعض خجلٍ، فمالَ على صاحبه هامسًا..

"ما لنا وما لها! دعْ عنكَ سيرتها،

فقدْ ماتت المرأةُ وذهبتْ إلى ربّها".

حرّك الأخيرُ كتفيْه بلا مبالاةٍ بعد نفحةِ التّقوى التي حلّت على زميلِه، والتفتَ ينظرُ إلى الطّريق عبْر النّافذة.

بـ الأمامِ جلسَ الرّجل خشن الصّوت، وكأنّ الدنيا اجتمعت عليه، فمزّقت ثوبَ قوّته، وتركتْه مُنكسرَ الفؤاد، مهزومَ القوَى، تتحرّك عيناه بفزعٍ، يجاوره شابّان لهما نفسُ الهيئة وقد تكالبَتْ عليهما الأحزان، كلاهُما يبكي وهو وحدَه متحجّر العينيْن.

عادَ صوتُ الرّجل خافتًا بالخلف لصاحبه..

"أتعلم أنّ ابنها الأكبرَ لم يبكِ يومًا في حياته"

مشدوهًا أجابَه صاحبُه:

"غير معقول.. أبدًا"

حرّك الرّجل رأسَه مؤكّدًا وهو يضيف:

"علمتُ من زوجتي أنّ أمّه كانت تمنعُه، وتقولُ له..

"لم يُخلَق مثلُك للبكاء؛ فأنتَ رجلٌ، والرّجلُ لا يبكي"

ففهِمَ أنّ البكاء عدوُّ الرجولة، وعاش كاتمًا دمعَه".

أمامَ بعض الأحزان تخشع الاحتياجاتُ، وتلوذُ بالاخْتباء، وهناك أحزانٌ تُهيّج الحاجةَ في النفوس، وتزيدُ من طلبها، مدّ الرّجلُ يدَه حيث القطعةُ الرّخامية، حمَلَها، ضمّها إلى صدره ضمّةً أثارت على وجوه المُراقبين له عجبًا، وكأنّ ضمّته ليستْ للرّخامةِ، ولكنْ لبعضٍ منه يعرفُه هو ويجهلُه الحضور.

ألصقَها بصدْرِه أكثر، أنفاسُه تتمزّق، عيناه يكادُ الضوءُ يغيبُ عنها؛ فلا ترى شمسًا، وكأنّ الليل حلّ وهوَ بعدُ لم يحِلّ!

ثُمَّ والله كأنّي أسمعُ صوتَ دمع عينه، وهو يسيرُ مِن مجْراه يتّجه لأعلاه مُتهيّئًا لمغادرتِه، لكنّه لا ينفكّ يقفُ على أعتاب عينِه حتّى تتعثّر لآلئه، ولا تقوم لها قائمة.

أمّا شفتاه فتتحرّكان بهمسٍ طفيفٍ لا يسمعه إيّاي..

"كُنْ رجلًا، ولا تبكِ،

كُنْ رجلًا، ولا تبكِ"!

عَلَا صوتُ أحدهم..

"وصلْنا يا رِجال"

وقفَ الجميعُ على رأسِ القبر، إلّا هو، مُتهالكٌ أرضًا لا يقوى على قيام، يهمسُ إليها بحنينٍ، وعينُه شاخصة حيث قبرها.. "ألا تأذني؟"

الدّعواتُ تعلو من كلّ مكان، وهمسُه لا يزال.. "ألا تأذني؟"

أصواتُ التّعازي والمواساةُ تصلُ إلى أذنه، ولا يزال.. "ألا تأذني؟"

بعضُ الضّربات الخفيفة على كتفِه تُخبره أنْ.. تمَاسَك،

وكلماتُه الوحيدة لا تزال.. "ألا تأذني؟!"

بدأتْ بعضُ الجموع مِن حوله تنفضّ، والأقدامُ تتباعَد، اقترب حيث قبْرها، مبلّلًا تفوحُ منه رائحةٌ طيّبة، مدّ يدَه يتحسّس التراب، وبدأ حديثَه إليها عنها.

"علّمتِني معنى أنْ أكون رجلًا، وفي هذا أحسنتِ، لكن رحلتِ قبلَ أن تعلّميني كيف أُصرِف الألمَ كرَجُل؟

كيف أفرغُه وأطردُه من نفسي؟!

أمّاهُ، ما توجّعتُ يومًا مثلَ اليوم، فكيف أصبّ هذا الوَجَع؟ أحتاجُ أنْ أصبّه كي أتنفّس، كي أحْيا!

قلتِ.. "كُنْ رجلًا، كُنْ أرضًا يدكّ عليها الجميعُ ولا تُدكّ"

أوَ لا يجري بالأرض أنْهارٌ يا أُمّي؟!

قلتِ.. "كنْ سماءً يستظلّ بها الضّعفاء"

أوَ لا يحقّ لهذه السّماء أن تُمطر؟!

فقدِ امتلأت الغيمةُ بالجروحِ، وجرحُها هذه المرّة عميق، دَعيني أسكبُ مُصيبتي بكِ في دمْعٍ يا أمّي، دَعيني أُحرّر بعضَ الوجع، فقط البعضُ، دَعيني أبكي"

هُنالِك انتفضَ أقربُ إخوته منه موْضعًا، وهو يرى العَبراتِ تسقطُ من أخيه فيضًا مِدْرارًا، فتغرق وجهَه وملابسَه، وجسدُه مِن خلفها كلّه يرْتَجف!

إنّه يبكي، لأوّل مرّة يبكي، ودموعُه تصلُ إليها، حيث ترقد، تسقطُ العَبَرات منه عليها كأنّها ضرباتٌ فوقَ طيني،

صدق الرّجلُ حين قال إنّ الغيمةَ بداخله تحتاج أن تُسكَب، فقد كان لها بداخلي مذاقُ المَطر!

أمّا الرّوح الباكية، فبعْدَ كثيرٍ فيْض.. أخرجَ قلمًا أسودَ اللّون، وخطّ على الرّخامةِ الصّغيرة جُملةً عربيةً قصيرة..

"هُنا ترقُد رُجولةُ أُمّي!"

هذا ومَضَى مُبتعدًا، يتزاحمُ على كتفيه الفخرُ بها، والحنينُ إليها، واللّهفةُ عليها، أمّا دموعُه لديها فكانتْ دلالة على الإنسانيّةِ داخله، جندٌ من جنودِ الرّحمة التي جُبِل عليها البشرُ، فلوْلاها لاهترأتِ الرّوح من ازدحام الشعور، ولتمزّقت من فرط الكتمان!

سكَنَ صوتُ الأرضِ لدقيقة، ثُمَّ تابعت:

- صدقَ رجلٌ كان في القرنِ الرّابع من هجرة مُحمَّد صلى الله عليه وسلّم، اسمه "ابن حزمٍ" حينما قال..

"إنَّ الهمومَ إذا تَرادَفَت في القلبِ ضاقَ بها،

فإنْ لَمْ يفِضْ مِنها شَيءٌ بِاللِّسَانِ،

وَلَمْ يُستَرَح إلى الشَّكوى..

لَمْ يلْبَث أن يَهلِكَ غمًّا ويموتُ أسفًا"

وها أنا أزيدُ عليه..

"وبماءِ العيْن يُستَراح يا إمام.."

تبدّلت الأجواءُ كثيرًا، ربّما طغى بعضُ الحُزن على الشّمس، فقد بدتْ أشعّتها أقلّ احْمرارًا، بعض اللّهب يستعر، والبعضُ يكتفي بحرارتِه، نَبَض بمُنْتصف غلالتها همسًا بعضُ الأسئلة..

– الذي أرادَ البكاء..

هل كان وجهًا صائمًا وأراد أنْ يرتَشف ماءً؟

أمْ أنّه وحيٌ قديمٌ من رسالات السّماء؟

أمْ أنّ صمتًا من كلامٍ أرادَ بوحًا؛ فبكى الكلام!

هل كان للبَشرِ خوفًا من عذاب؟

هل كان لبعضهم ماءً من غياب؟

هل كان صرخة مالحة تُغني عن كلّ العتاب؟

أم أنّه فرحة قديمة؟ أم أنّه ضحكة عقيمة؟

أو أحسبه ذكرى عظيمة!

هل أعْلنوا الدّمعَ ليلًا بعض السّلام؟

أم أنّه هو.. البديل عنِ الكلام؟

أمْ نصّبوه إلهًا للضّعيف وللجبان؟

أمْ أنّه كلّ الشّجاعة؟ أم أنّه خيرُ البضاعة؟

أم أنّه موتُ ساعة؟ أو أنّه نبض الحياة؟

أو كان خفقة آمنة عند الصّلاة؟

أو كان توبة صادقة حتّى النّجاة؟

أو أنّه كلمة "أكره"؟ أم أنّه كلمة "أُحب"؟

أو أنّه كلمة "ساعِدْني"؟ أم أنّه كلمة "يا ربّ"؟

***

مرّت ساعةٌ أو يزيد، هناك خفقاتٌ تدبّ مِن حولهم، مصدر الصوت لا أحد يعرفه، ولا يُملَك تفسيره، بتردّدٍ أتى حديثُ الشّمس:

- ألا يُشبه صوت نبضِ البَشَر؟ ذاك الذي هو داخل صُدورهم.

بدا التّفكيرُ على وجْه القمر، يتّكئ بأركانِه كلّها على حماسٍ يتسلّل داخله، ثُمّ لا ينفكّ عنه حتّى يمتلكَه، أجاب:

- لعلّ ذاك دبيبُ سرٍّ من أسرار الكوْن الذي لا ندْريه، لكن، تعْلَمين.. النّبضُ أمرٌ مُعتاد، أمّا الخفقاتُ فهي كما سمعتُ أحد المؤنسين بصُحْبتي ليلهم، والهامسين إليّ بأسرارِ نهارهم، أنَّ..

الخفقاتِ هي شهقاتُ الفقْد، ولا تكون إلّا مِن مُحبٍّ على مُحبٍّ.

كمصحّح تربويّ تدخّلت الأرض قاطعةً الظّنون، لابسةً رداء العلم هاتفةً من على مِنبَرِه:

- أتدْرونَ ما الحبُّ؟

فقد أتاني نبأه من أقدام السّائرين إليه، ومن عفار العائدين منْه، ومِن أيدي القابضين والمُشْفقين والنّادمين عليه، ومن صدورِ الحافظين والمُعانقين والمتسوّلين له، والمُخْتبئين فيه، ومِن المؤمنين والكافرين به.

الحُبُّ هو اللّهفة، والضمّة، والشمّة، واللّمة، والهمسة، واللّمسة، والأنّة، والشّهقة، والزفرة، والدّمعة، والرجفة، والغضبة، والفرحة، والرّحمة، و.. الموت!

الشّمسُ وزنُها ثلاثمائة وزن مِن ثِقَل الأرض.. لكنْ مع ذلك بدتْ كطفلةٍ صغيرة وقدْ ألهبت الكلماتُ الأخيرة جمْرَ فضولها؛ فقفزت بسعادةٍ يحملُها شغفُها لسماعِ الحكاية مُتوسّلة:

– احْكي يا أرضُ، هيّا ابدئي، هيّا...

ضحكتِ الأرضُ بقوّة، ولوْلا أنّ الله ثبّتها منذُ القدم بقدرتهِ لاهتزّ كلّ ما فيها من فرْط رجّتها، ثُمَّ استفتحتِ القصّ:

– بالقرونِ الأولى من هجرة "مُحمَّد" صلّى الله عليه وسلّم، وكان وقت الحجّ، أتى الطّوافَ رجلٌ قد وُلِد في الإسلام،

سيدٌ في قومهِ، تلوحُ عليه ديباجةُ الحُسن، ويجري على وجهه ماءُ الغنَى، مشَى بين الطوّافين مُخفضًا جناحَ عُجبِه، مُقلعًا عن كبرِه، مُتصاغرة إليه نفسُه، يهمسُ إلى رّبه همسًا قليلًا خجولًا، ويُحقّر من شأنِ نفسِه، ويُعظّم من شأن موْلاه، يدعو دعوتَه الدّائمة برعشةٍ ورجفةٍ..

"يا ربّ، بجوارِ الباب، فقط أدْخلني الجنّة، حتّى ولو جعلتَ مكاني بجوارِ الباب"

يدْعو ويدْعو.. ثُمَّ وهوَ يقترب في طوافِه من البيتِ سمع حسّ امرأةٍ تبكي، وصوتُها يتضعْضَع رجاءً وهي تنادي...

"يا ربّ، بحقّ حُبّكَ لي؛ ارزقني قلبًا طائعًا أعبدُكَ به".

ما إنْ سمعَ الدّعاء حتّى أفزعته الكلمةُ؛ فالتفت مُجبرًا إلى صاحبتِها، فوجدَها امرأةً قد تعلّقت بأستارِ البيت، وجسدُها يهتزّ من البُكاء، فأقبلَ عليها حتّى اقتربَ من موضعها، ومازال صوتُ ندائها يأتيهِ بنفس الكلمات!

وقفَ أمامَها هاتفًا..

"ويْحكِ يا أمَةَ الله! هل هذا هو الأدبُ مع الله؟!

تأدّبي في رجائك، وأحْسِني في ندائك، وتعلّمي قدْرَكِ وقَدر مولاكِ"

التفّت إليه المرأة، ولملمَتْ حجابَها، وأكّدت عليه، ثُمَّ سألته..

"البيتُ بيتُكَ أم بيتُه؟!

الحرمُ حرمُكَ أم حرمُه؟!"

فأجابَ الرّجلُ في السّؤالين.. "بل لله سبحانه"

فردّت المرأة عليه ناهرةً..

"إذًا ما ضرّكَ أنْ أدعو صاحبَ البيت على قدْرِه لا قدْري؟

فأنا أسأل الله.. لا أسألكَ أنتَ!"

فأعاد زجْرَها صائحًا..

"تأدّبي مع ربّك، تُقْسمين عليه بحبّه!

فهلّا أقسمتِ بحبّك؟"

فأجابته..

"يا عبدَ الله، بل أُقسِمُ عليه بما أثقُ به أكثر"

امتلأ وجهُه عجبًا؛ فأردفت..

"حُبّه لي فاقَ حبّي له، ألم يخلُقْني، ويرزقني، ويكسوني، ويطْعِمني، ويسْقيني؟ وكنتُ من أهل الكفر؛ فأرسل الجيوشَ إلى أرضي، ودخلَ الإسلام إلى بيتي، وماتَ مَن مات في سبيلِ ذلك، ثُمَّ شرح صدري للدّين، وجعلني من أهله، فأنقذ روحي من النّار، وجاءَ بي إلى هنا لأقفَ وقفتي هذه، وأدعو دعْوتي هذه، وأسكبَ دمْعتي هذه، وأنا مازلتُ أعصِيه وأحملُ على ظهري كلّ ذنوبي هذه.

فمن منّا صاحب الحبّ الأكبر؟!

وهل يليقُ بجلالِه أنْ أُقسِم عليه بحبٍّ فقيرٍ هزيلٍ منّي، وقد سبَقَني منه سبحانه كلّ ذاكَ؟!"

أطرقَ الرجلُ رأسَه وقد أصابتِ الكلماتُ منه موضعًا ذا أثر؛ فوجمَ لها وجومًا، وخشعَ لها خشوعًا، ثُمَّ لمّا عادت نفسُه إلى نفسِه رفعَ رأسَه يبحثُ عن المرأة؛ فاذا هي ولّت.

فعادَ إلى طوافِه ولسانِه الذي كان يرتجفُ خجلًا..

الآنَ كأنّما قد فُكّ من عقال؛ فنادى..

"يا ربّ، كما رزقتني حُبّه، وحبَّ سنّته، وسيرته، فابعثني معه، واحْشُرني معه، ارْزقني جوارَه، مع نبيّكَ يا أكرمَ الأكْرمين".

وكأنّما تجمعُهُم طاولةٌ واحدة، الثّلاث يتناولون القصصَ بشراهةٍ وفضولٍ وتلذّذ، يستطعم أحدهم المعنى، ثُمَّ يرسلُه في ضوئه وأشعّته، وحصْوه، ورمْلِه، ومائه، ونارِه، وعتمته، وسرّ بقائه، طرحَ القمرُ قولًا مُعلِّقًا على الحكايةِ:

- إنّي والله لأعجَبُ من قصّةِ هذه المرأة كلّ العَجَب، هو وُلِدَ بالإسْلام، وشبَّ عليه، وكبرَ فيه، وصارَ رجلًا، وهي حديثة عهدٍ بالدّين؛ علّمته ما لم يعلمْه طوال سنينه!

والله إنِّي في قصّتها لَمَن الحائرين.

بيدٍ مِن كلمات.. مسحتِ الشّمسُ على رأس القمر، ونظرت بعينهِ ضامَّة وجهَه بين كفّي حروفها، وهمَسَت:

– افْهَم يا "صُنعَ الله"، المرأةُ رأت في كرمِ ربّها عليها وحدوث كلّ هذا.. حتّى تقف وقفتَها هذه أمام الكعْبة، فتدعوه ليغفرَ لها؛ فيغفر، رأتْ كلّ مصائبِ وأرزاق حياتها جندًا من جنوده ليأتي بها إلى عتبةِ الإسْلام؛ فتؤمن، فتُزحزَحَ عن النّار، وتدخل الجنّة.

أمّا الرّجُل.. فقد سار سيْرَها، واعتنق إيمانَها، فرأى فيها كذلك جنديًّا من جنود الله، وكأنّها قُدّر لها أنْ تكون في هذه البُقعة في هذا الوقت لا لشيء إلّا لتنبّهه وتذكّره، أن..

"يا عبدَ الله، ادْعُ المَلِكَ على قدْرِهِ لا قدْرِك، ادْعُه بما تحبّ، فإنّه لما تحبّ يُحبّ".

هنالك تلقّفت الأرضُ فقْهَ المعاني من أحرف الشّمس، فهي الشاهد الأعظمُ هنا، تابعت:

– حياةُ البشَر مواقفُ وأسرار وحِكَم، أمّا البشرُ أنفسهم..

فكثيرٌ مَن ينام، قليلٌ مَن ينْتبه، وأقلّ منهم مَن يغتَنِم!

***

مازال جمْرُ الشّمس الملتهب يزدادُ تأجّجًا، تسأل بشوقٍ:

– هل مِن مزيد؟

– نعمْ يا "رحمةَ الله"، أزيد..

ما رأيُكِ بحبّ رجلينِ لم يلتَقيا واجتمعَا على حبِّ القرآن؟!

بعام خمسمائة وثمانية وثلاثين وُلد "أبو القاسم"، كان فقيرًا ضريرًا، لكنّ ذلك لم يمنعْ أسرتَه أن ترى فيه أملًا ورزقًا وكرمًا، ملأوا عينَه المُعتمة وأنفَه وحواسّه كلّها بالقرآن وعلومِه؛ فأضاءَ كلّ ما فيه ما بين المشْرق والمغرب، حفِظ كتابَ ربّه صغيرًا، وتعلّم طرفًا من الحديثِ والفقه، ثُمَّ حملته قدمُ الجَمال إلى حلقاتِ الجمال؛ فبدأ في تعلّم علم القراءات وكان يُلاحَظ فيه ميلُه الشّديد إليه، وحرصُه عليه.

ثُمَّ كان من فضْل الله أنْ ألّف بين قلبِه وعقله، فكان نابغةً في القرآن والقراءات، أعجوبةً في الذكاء، كثيرَ الفنون، آيةً من آياتِ الله تعالى، حافظًا للحديث، بصيرًا بالعربية، إمامًا في اللّغة، ورأسًا في الأدب، كذا الزّهد والولاية والعبادة.

شافعيّ المذهب، وكان ديّنًا خاشعًا، كثيرَ الوقار لا يتكلّم فيما لا يعْنيه، ولا يجلس للإقراء إلّا على طهارة في هيئة حسنةٍ وخضوعٍ واستكانة، ويمنع جلساءه من الخوض إلّا في العلم والقرآن، وكان يعتلّ العلّةَ الشّديدة ولا يشتكي، ولا يتأوّه، وإذا سئلَ عن حاله؛ قال.. "العافية"، لا يزيدُ على ذلك.

آتاهُ الله رزقًا، وفتح عليْه فتحًا، ونظم نظمًا مُدهشًا.. كاتبًا إبداعَه الذي بلغَ الأرضَ كلّها، متن "الشّاطبية"، والتي لم يكتفِ فيها بالقراءاتِ فحسب، بل تعتبر من عيونِ الشّعر.. حوتِ الكثيرَ والبديعَ من عذوبة الألفاظ، ورصانة الأسلوب، وجودةِ السّبك، وحُسْن الدّيباجة، وجَمالِ المطلع والمقطع، وروْعة المعنى، وسموّ التّوجيه، وبديع الحكم، وحسن الإرشاد.

حتّى أتى اليومُ الذي أفلَ فيه نجمُ الشّيخ، وغرُبَت شمسُ حياتِه، لكن لم ينتَهِ علمُه الذي صار من بعده كوكبًا يُستدلّ به، توفّي "الشاطبيّ" وهو في الثّانية والخمسين من عمره.

وبعدَ قرنيْن من الزّمان أو يقلّ قليلًا، أتى "ابن الجزري"،

وقد نشأ في دمشق، وفيها حفظَ القرآن، وأكمله وهو ابنُ ثلاثة عشرَ عامًا، وصلّى به إمامًا، والرّجالُ والصّبيان من خلفه وهو ابنُ أربعة عشر!

كان صاحبَ ثراءٍ ومال، وبياض وحمرة، فصيحًا بليغًا، كان الحجّة الثّبت المدقّق، فريد العصر، سندَ المقرئين، شيخ شيوخ الإقراء، صاحب التّصانيف التي لم يسبقْ مثلها، ولم يُنسَج على منْوالها، بلغ الذّروة في علوم التّجويد وفنون القراءات، حتّى صار فيها الإمام.

كان غزيرَ الإنتاج في ميدان التّأليف، في أكثر من علمٍ من العلوم الإسلامية، وإنْ كان علمُ القراءات هو العلمَ الذي اشتهرَ به، وغلب عليه، فإلى جانب كتبِ القراءات وعلوم القرآن، وضَعَ كتبًا في الحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، والتّأريخ والمناقب، وعلوم العربية، وأهمّ كتبه في القراءات كان "متن الدّرة المضية".

أمّا عجيب شأنِهما، وما جَمع الله به بينهما،

يقول الإمام "الشّاطبي" في آخر قصيدته "متن الشاطبية"..

"وآخر دعوانا بتوفيقِ ربّنا

أنّ الحمد لله الذي وحدَه علا"

ويقول ابنُ الجزْري في مستهلّ قصيدتِه "متن الدّرة المضية"..

"قلِ الحمدُ لله الذي وحدَه علا

ومجّده واسأل عونَه متوسّلا"

فكأنّ "ابن الجزري" وعلى الرّغمِ من الفارق الذي يزيدُ عن قرنيْن من الزمان، يُخبِر..

"أنّ هذه المنظومةَ الأخيرة من تلك المنظومة الأولى قلبًا وقالبًا، وأنّ الزّمان لا يكون أبدًا حاجزًا بين القرآن وأهله، وعلومه، وقراءاته"

فإنّه جعلها على وزنِها متمّمة لها، ثمّ بدأها بما ختمَ الآخر تلك..

لله درّ "الشاطبي" و"ابن الجزري"، لم يجمعهم درسٌ واحد، ولا مجلسٌ واحد، ولا شيخٌ واحد؛ لكنْ جمعَهم المولى على كتابٍ

واحدٍ من فوق سبْع سماوات؛ فأتمَّ واحدهم الآخر، تحسبُهم جنودًا يتسابقون في دربٍ من النّفعِ والإفادة دون انتظارِ عطاءٍ له، لا يأبهُ الواحدُ منهم إنْ كان كلّ قدره من الأمر..

ريشة في محبرةٍ لطالب علمٍ.. ولا زيادة.

***

بحرفٍ من جنونٍ لطيف، بدا صوتُ الشّمس وهي تتكلّم وقد أكلَ الفضولُ رؤوسَ حروفها:

- ما علاقةُ الوردِ بالُمحبّين يا أرضُ؟!

ما السرّ في أنّ الأحبّة دائمًا يتبادلون الورد؟!

ما دلالته؟!

لم يستطعِ القمرُ أن يكظم أسئلتَه هذه المرّة؛ فطرح طرحًا مُشابهًا للشّمسِ في اندفاعها كذلك؛ صابًّا سيلًا من الاستفهامات على رأس الأرض، ربّما أراد إجابة، وربّما لم يُرد، لكنه سَرَدهُم على أيّ حال:

- أوّل مَن جعل الورود رسائلَ..

ماذا أرادَ بفعْلتِه؟

هل قصدَ قول "السّلام"؟

أمْ أراد بديلًا عن الكلام؟!

وهل عَلِم أنّ الورود ضدّ الحياة؟!

أمْ كان يقصد جعلها مجرّد أداة؟

أمْ كان ينوي زرعَها بستان عشق؟

أوْ كان يحسبُ ألوانها أبوابَ رزق؟

أم أنّه كان فقيرًا ولا يملك ثمنَ الهديّة؟

أوْ لعلّه عبدًا جهولًا لا يدري معنى العطيّة!

أو أنّ صدفةً أنجبت تلك الورود؟

أوْ أنّ في أوراقها بعضَ الوعود؟

أو أنّ في أشواكها نقضَ العهود؟

أم أنّ خبيئة قطفها؛ همس "الختام"؟!

توتّرت الأرضُ، لم يدُرْ بفكْرِها أنّ الشمسَ والقمر سيكون عليهما ذاكَ التّأثير، مضى نصفُ الوقت، ساعتان منذُ بدْء ظاهرة الكُسوف، لكنّ أشعّة الشّمس من تأثّرها تهيجُ وتفيضُ، وتهمّ أن تندفعَ دفعًا تجاه القمر!

تحدّثت بعدَ تفكيرٍ قصير، وبصوتٍ يملؤه الجدّ:

– الورودُ تُشبه البَشَر، تحتاج للسّقيا وإلّا ماتت، كذا الإنسان، إن لم يقمْ بريّ مشاعرِه والاعتناءِ بها وتنقية خاطره أوّلًا بأول؛ لتعكّر كلّ شيء، وعاطفة الإنسان هي وقودُه، إن نفدتْ نفدَتْ طاقتُه من الصّبر والتحمّل والرّضا والقتال.

مُعْترضًا صاحَ القمر:

– المشاعرُ ليستْ هي الوقود، الهدفُ هو الوقود، مادام الإنسانُ يسيرُ واضعًا أمامَه هدفًا يصْبو إليه، ونجاحًا يجْري عليه؛ فلن يميلَ أو يحيدَ أو تخدعه قدمُه بالتّهاون يومًا، أو السّقوط.

هُنالِك وجّهتِ الأرضُ حديثَها للشّمس تُشهدها:

- إذًا اسْمعي يا "رحمَةَ الله" ما سأحْكي، واحكمي..

مِن أيّ شيءٍ يكون وقودُ الإنسان؟

اعتدلَ القمرُ بعدما كان مُتّكئًا، واختفتِ الضّحكة عن وجْه الشّمس، وحلّت مكانَها ابتسامةُ اهتمام، بثباتٍ بدأ سرْدُ الأرض:

- كان رجلًا من أهلِ حيّ "الحُسين" بالقاهرة، حسنٌ كلّهُ، خُلقه، وخِلقته، ولسانُه، وحديثُه، وجدّه ولعبُه، وإقدامُه، وإحجامُه، وحبّه، وبغضُه، وعلانيتُه، وسرّه، ومع زوجه، وأهله، كان في النّاسِ آية.

ثُمَّ قدّر المولى عليه من قدرِ البلاء أن يُصاب بـ "الزهايمر"، وهو مرضٌ يُنسي الإنسان.. الإنسان الذي كان، ويبدّله حالًا يصدَحُ بالهوانِ.

مع ذلك لم يعترضْ، فقط صبرٌ ورضا، وأخذٌ بالأسباب، يسير على العلاجِ لا يترك يومًا، على الرّغمِ من ذلك لا تزال الذّكرياتُ تتفلّت منه، لا تتمسّك بصحْبَته، وترحل عنْه دون وداع.

مرّ الوقتُ حتّى انتظم جسدُه على العلاج، أغصانٌ نضِرَة من الذّاكرة تنتعشُ في رأسه، وتحيا وتُثمِر، لكنْ إذا نسي موعدَ الدّواء مرّة أو مرّتين ولم يأخذه، تتساقطُ الذّكريات من رأسه كتساقطِ أوراق الشّجر، ثُمَّ إليه أبدًا لا تعود.

العجيبُ أنّه وكلّما أخلّ بالعلاج؛ تتوقّف به الذكرى عند اليوم الذي أعطتْ زوجته لابنِه خمسمائة جنيهٍ حتّى يوصلها إليه في المسْجد، وهكذا كلّما اشتدّ عليه النسيان واستغرقه الفكر الماضي والزّمن الماضي؛ اتّصل بابنِه يسأله..

"أينَ المالُ يا ولدي؟".

والأعجبُ من حالِ الأب، أنَّ الابنَ بالفعل كان يتركَ بيته وعملَه، ويذهبُ إليه؛ فيسلّمه الـ خمسمائة جنيهٍ، ثُمَّ لا يدري أحدٌ أين يذهبُ بها، حاولت الأُمّ أنْ توضّح للأب حقيقةَ ما يحدُث، وتسأله أينَ يترك المال؟

فلمّا ثانيةً انتظَمَ دواؤه، وعادتْ إليه ذاكرتُه؛ علِم من أمرِه ما عَلِم، وأدرك منْه ما كان جَهِل؛ فخجِل من نفسِهِ خجلًا عظيمًا،

واضطربَتْ روحُه اضطرابًا شديدًا، ثُمَّ سكت سكتةً أطال فيها حدّ الصّيام عن الكلام؛ هُنالِك قرّر الابنُ أنْ يمنع أيّ شخص مِن محاولة تذكير والدِه أو تنبيهه!.

ثُمَّ يتكرّر أمرُ الدّواء، ويُنسَى.. ويَنسَى، فيُنادي الأبُ الابنَ؛ فيأتِ ويسلّمه الـ "خمسمائة" جنيه!

لا يملّ أبدًا، لا يتأخّر أبدًا، لا يسأل أبدًا أينَ يذهب المال، يخشى أن يرفضَ فيسوء حالُ والده، ظلّ الأمرُ هكذا حتى مرّ عام، وفجأة بدأتْ صحّة الأب تتدهورُ قليلًا قليلًا، حتّى أتى اليومُ الأوّل من رمضان لعام ألفٍ وأربعمائة وأربعين، عاد الأبُ من صلاة الظّهرِ، منتصبَ الظّهْر، ثابت الخطوات، متّزنَ الأفكار، فكأنّما أقام الجبّار صحّتَه، وأيقظ عقلَه، وجمع شتاتَ ماضيه بحاضرِه؛ فسلّم على الحضور بأسمائهم، واتّصل من هاتفه على كلّ غائبِ الجسدِ حاضرٍ في الفؤاد.

قامَ لزوجِه فضمّها إليه ضمّةً بثّ فيها كلّ ما خبّأ لها بقلبه؛ فـ اللّمّة آيةُ الحُبِّ الأولى والأخيرة، ثُمَّ جلس ونادى ابنَه إليه، ليُقبلَ عليه، فلمّا استقرّ بين يديه، انْحَنى على رأسِ وقبّلها!

ارتجفَ الابنُ رجفةً خرجتْ من عينيه في دَمعَة، ومن شفتيْه في شهقَةٍ، ومن صدْرَه في نبْضَة، هزّت كلّ ما تبقّى في كيانه من ثبات، مالَ الأبُ على أذنه، وأسَرّ إليه بحديثٍ..

"صبرتَ عليّ..

كلّ ذلك المال منْك يا ولدي، أبشِرْ..

والله ما ضاعَ أبدًا، والله ما ضاع!"

رفعَ الابنُ نظرَه إلى عينه، فرأى فيها أثرَ الذّكرى تلو الذكرى وهي تتجمّع في مآقي والده؛ فعلِمَ أنْ آنَ الأوان..

انْحَنى على يدِه فقبّلها، على قدَمِه فقبّلها، ثُمَّ إلى رأسِه فقبّلها، عادَ بجسدِه إلى الخلف حيث أُمّه فقدّمها، حتّى وقفت أمام والدِه فتلقّفته بين ذراعيها، وأسندت رأسَه على صدرها، بدأت أنفاسُه تهدأ رويدًا رويدًا، والبكاءُ حوله يعلو شيئًا فشيئًا، زحفَت أصابعُه المّرتعشة حيث أناملها التي تُعانق رأسَه، فقبضَ عليها قبضةً ضعيفة، وهمسَ إليها همسًا أشدّ ضعفًا..

"لا تنسي.. عندَ الكوثر نلتقي،

والله لن أشربَ حتّى تشربين".

كتمتْ شهقةَ الفزع، وأنّةَ الفقد التي تكاد تفلتُ من بين شفتيها، شعرتْ برأسِه يزداد ثقلًا، وأنفاسِه تتناقصُ عددًا، حتّى ذهبت كلّها.. ورحلَ الأبُ رحيل الكَفَن!

بعدَ شهرٍ أتى اتّصالٌ من دار أيتام على هاتف الأب يُذكّرهم بالمَوْعد الشّهري لسداد كفالة طفليْن، ثُمَّ عند السّؤال عن تفاصيلِ الأمر، جاء الخبرُ أنّه تمّ التكفّل بهم شهريًّا بمبلغِ "خمسمائة" جنيهٍ منذُ عام أو يزيد قليلًا.

التفتَتِ النّظراتُ كلّها حيث الشّمس، صامتة لا حروف، لا كلمات، فقط السّكوت، تنحنحَ القمرُ مُنبّهًا لها؛ فتنبّهَت، واستخبرت:

- لماذ استمرّ؟

باستفهامٍ سألَ القمر:

- مَن؟

أجابتْ بإيضاحٍ مُستنكَر:

- الابن، لماذا استمرّ الابنُ بدفع المال؟!

بُناءً على قولِكَ؛ فلا هدف هنا، ولا نجاح، ولا جائزة!

فما وقودُه الذي يدفعُه للاستمرار بتسليم المال إلى والده كلّ مرّة، ولا فائدة أبدًا تعودُ عليه؟!

تدخّلت الأرضُ بحديثِها:

- ربّما لأنّ حُبّه لوالدِه جعلـ.....

زفَرَ القمر مُتململًا مُعترضًا من تفسير الأرْض، أمّا الشّمسُ فقطعت كلماتِ الأرض مانعةً لها من الاسْترسال، وأكملتْ هي:

- الحُبّ وحدَه لا يكفي أن يكونَ وقودًا، ولا الهدف وحده جديرٌ بتلك المهمّة، ولا الفوز، ولا السّلطة، ولا القوّة، كيف يا أرضُ بمراقبتكِ للبَشرِ لم تعلمِ السّرّ وراء أفعالهم وأنتِ شاهدة على صنائعهم من خيراتٍ وثمرات، غدرات وفجرات، تالله ما يحرّك مثلَ هذه الجبال داخلَ صدورهم إلّا الإيمان، ولا أعنِي

إيمانَهم بالله؛ بل ذاك اليقين داخلهم بأنْ لا شيء يذهب سُدُى، لا شيء يضيع، كلٌّ مُسجّل ومُدوّن عند الله، الثقة أنّ هناك لُطفًا مصاحبَ العُسر، أمر ما بكيفيّة ما سيأتي؛ فيصلح كلّ شيء، ما يُفسدُه العالمُ لا يُصلحه إلّا الله.

هكذا هو اليقينُ بكلّ بساطة، ربّما رأيي بسيط يُشبه أشعتي في سقوطِها على وجْه طفل، لكنْ خلفَ أشعّتي جمرٌ يلتهب في صدْري وأرْكاني، يستعرُ فيخرج منّي ضوءًا ودفئًا وحياةً.

طالبًا بلوغَ درْب الاقتناع، استوضحَ القمر:

- وبمَ كان يؤمنُ الابن؟

- يؤمنُ باسْمِ الله "الرحيم"، "اللطيف"، "الكريم"، "العدل"، "الخبير"، "الحكيم"، يؤمنُ أنّ مَن كان طوال حياته لا يعمل إلّا ما يُرضي ربَّه؛ فهل عندما يفقدُ جزءًا من عقله يضيّعه الله!؟

تذوبُ الأرضُ من خجلٍ وهي تهمِس:

- وقودُهم اليقين، ومَن كان يقينُه في الله؛ تالله أبدًا لا يضيع.

بنصفِ قناعةٍ، وبنصف شكٍّ، يستنبِئ القمر:

- وما حكمةُ الله في هذه القصّة كلّها؟

بسرعةٍ هتفَتِ الأرض:

- لا يعلمُها إلّا هو، لكن.. ألَا ترى أنّ "الزّهايمر" كان جُندًا من جنود لُطفِه؟!

فلوْلاه ما نسيَ الأب، وظلّ يطلبُ المال، ولوْلا صلاحُ الابن ما أتى أبوه بالمال، ولوْلا صلاحُ الأب ما صلُحَ الابن، كذا لوْلا صلاحُ الأب في تمام العقل ما أُلهِمَ الصّلاح في ذهاب بعضِه، وما وصلَ للأيتام ذاك المالُ أبدًا.

تناهضَتِ الشّمسُ في مطلِعِها تُرسلُ أشعّتَها كالياقوت الأحمر، فيكسفُها القمرُ بأمرِ ربّه؛ لوْلا هذا لأنارتْ ظلامه، وتجلّت سعادتها على الأرضِ ما بين خضرائها وغبرائها، صاحتْ مُسْتبشرة:

- ما أعظمَ التّجارةَ مع الله!

بطلاقةٍ دون قيْد، أنجبَ اللّيلُ صبحًا حينما اكْتمل؛ فجاءت كلمات القمرِ تحملُ رنّة الرّضا.. تمامَ الرّضا:

- سبحانَ الذي جعل مِن المرضِ جندًا من جنود رحمته.

وسبحانَ مَن جعل مِن البرِّ جندًا من جنود لطفه!

***

جلجلتْ ضحكةُ الشّمس الفضاءَ بأسْره، وهي تنظرُ للقمرِ مُتشفّيةً به، ناطقة:

- وكأنّك في اقتناعِك تشبهُ العيد، لا يحدُثُ إلّا مرّتين بالسنة!

نظرَ لها القمر شَزْرًا دونَ تعليق، فكأنّما يترفّع عن الخوض بمثل هذه التّفاهات، من أخذٍ وردّ ومهاترة، لكنّ الشّمسَ نقلت بصرَها سريعًا إلى الأرضِ كمَن تنبّه فجأةً لأمر، هتفت صارخة:

- بالله عليكِ احْكي عن العيدِ يا أرضُ.

استلمَتِ الأرضُ خيطَ الحديث، وألصقتْه بخيطِ الذّاكرة، ثُم خبّرت:

– سأنبّئكِ خبرًا لا تعلمينَه أبدًا يا "رحمَةَ الله"، فالعيدُ كلّما أَذِن اللهُ له أنْ يحلّ، فيكون بأمرِ الله، ثُمّ وقبلَ مُغادرته يُجالسني وقدِ امتلأ رضًا وسعادةً ونقاء، فيحدّثني حديث ودٍّ.

أخبرني العيد...

أنّ الفجرَ الأوّل حينما أذّن للصّلاة كان يربّت على قلوبِ النّاس، يمسح أنّاتهم، ويواسي أشواقَهم لرمضان، يُزيل دمعاتِ الفراق، ويضمّ أرواحَهم ضمّات الثبات.

وأخبرني...

أنّ الطّرقات كانت تتزاحمُ فيها الأقدام، وتتعانقُ الأرواح، والرّياحُ كانت تزور العيدَ لتهنّئه وتهديه هديّة، وعدًا منها أن تحملَ صوتَ التّكبير، فيسمعه كبيرٌ وصغير، وأنّ قلوب البعضِ ستبكي، وأنّ قلوبَ البعض تطير، وأنّ الزينة عن الحوائطِ لن تسقطَ أبدًا، وإنْ هي فعلت فستثبّتها الرّيح.

وأخبرني...

عنْ دمعاتٍ.. سقطنَ قهرًا عند الخَلَوات، وعن ابتسامات.. رُسِمَت في بعض الطّرقات، وعن لقاءاتٍ كانت من كرم السّماوات، وعن أحاديث.. كُتبت في صدورِ الحكايات، وعن ضحكات.. وعن ندوات... وعن صلوات، وعن ثمرات العشقِ الخالد حين تفوحُ من الهمسات.

ثُمَّ مضى العيدُ راحلًا على وعدٍ بأنْ لا يتأخّر، لكنّه وإن ذهب عنّي؛ فإنّ أثرَه لا يذهب منّي، كذا لا تزال نفحاتُه عالقة في صدور البشرِ من بعْده لبعض الوقت؛ فكأنّه بحرٌ من عسلٍ قد وُضِع في كؤوس ووزّع على الناس، فإذا حدّثت أحدًا وجدتَ في كلماتِه حلاوة، وفي أنفاسه رقّة، وفي حركاته أناقة، وكلّ ما به ينطق حُبًّا.

لمَعَ البِشْر في وجْه الشّمس، ولاحت على جانبيْها نشوةُ الطّرب من حديثِ الأرض، قالت بجدّية:

- والله إنّ العيدَ وأثرَه لأحبّ جند الله إليّ، ولو أنّ أهلَ الأرض يقومون بحقّه على بعضهم لصَلُح لهم ما بين المشرق والمغرب.

***

كان القمرُ واجمًا لا ينطلقُ لسانُه، ولا يُدرَك سرُّ انشغاله، مع أنّه رُزِق في القديم كلامًا لا يُقاوم بيانُه، ولا يجفّ بحرُه، ولا يُخاض غمرُه، ولا هو يومًا في بوْحه يتتَعْتع!

حاولتِ الشّمسُ إثارةَ غضبه وحنقِه كما تفعل وتتمكّن من ذاك لا ريب، فالأنثى أنثى.. وإن كانت كوكبًا!

لكنّه لم يلتفتْ لها، ولا للَعِبها وندائها، هُنالِك أقبلَتِ الأرضُ بحديثها إليه، وألقَتْ بحروفِها عليه؛ فأسَرَته بادئة:

– فيمَ الصّمت؟

انتبهَ إليها تُكلّمه، فارتدّ تيقّظه إليه شديدًا منيعًا، وأجاب مُستفهمًا:

– لمَ لا يُقدّر الإنسانُ تلك الأمور التي بين يديْه، وينزل منزلها، ويغتنمُ حصولَها ووجودها؟

أتمنّى.. ربّما مع الزمن أنْ ينتبهَ البشَرُ قبل فوات الأوان؛ فيصْحو أحدُهم على لَمسَةٍ مِن يَدِ الأمَلِ؛ فيقبِض مِن الهَواءِ نفسًا عظيمًا،

يكتمهُ داخِل صَدرِه، يُشدّد الانتِبَاه من حَوله، يُدرِك أخيرًا أنّ القِراءَة لَم تُحتَكر يَومًا على كِتَابٍ وحَرفٍ، وأنّ هُنَاك وجُوهًا ولَحَظاتٍ ومَواقِفَ وصدورًا وقلوبًا تُقرأ من حولِه، وأنّ ذلِكَ الاحتِياج الشديد داخله للبَوحِ ثُمَّ الكِتابَة أو الحديث، والذي يحمِل في طَيّاتِه بَعض انتِفَاضَة..

هوَ امتلاءٌ فيه ما عادَ يُطاق، وأنَّ كلّ حرفٍ يخرجُ منه هو انتِصارٌ لِروحِه وهَزيمَة لِحماقةِ الصّمت

وبالنّهايةِ يكتَشِف أنّ أغلَب لَحظات السّكُوتِ لَم تكُن بِلا أحادِيثَ خَفيّة، وأنّ أيّامَ طفولته لَم تَكُن مَاضِيًا عبَثيًّا شَديد التّخبّط والسّذاجَة، وأنّ الإنْسانية الماضية والمتجسّدة بكلّ ما سبَقَ هي جندٌ من الجنود في باب الحياة.

بدا حديثُ القمر بليغًا، أنيقًا، واضحَ المعنى، لم تأخذ الشّمس منه إلّا معنًى واحدًا، ثُمَّ نزعت عن رأسِها باقي المعاني وهتفتْ بالأرض:

– عنِ الإنسانية.. حدّثينا عنها في الإنسان.

- عنْ وصفِها، أم رسمِها، أم سببِ انقراضها، وذهابِ أماراتها؟

- بل عن جنودِها في الإنسان.

اتّكأتِ الأرضُ بوقارٍ وجَمالٍ وهي تُعدّل من ما حواه ركنُها، استهلّت القصّة بقولها:

- في مُنتصف عام ألفين وثمانية عشر، وعلى رأس اليوم الأول من الشّهر السّابع، وقف مجموعةٌ من الشباب في أحدِ النّوادي يحْكون فيما مضى مِن ذكرياتهم عن أوّل "كتكوت" تبتاعه أمّهاتُهم، ثُمّ يقصّ أحدُهم ضاحكًا كيف أنّه كسَرَ قدمي الكتكوت أوّلًا ثمّ رقبته!

كان الأمرُ مُضحكًا عند الحضورِ جميعًا، حتى أنّ بعضهم بدأ يحكي كيف كانتْ لحظاتهم السّعيدة مع نفس الكائن.. "الكتكوت"..

أحدُهم وضَعَه في وعاء الثّوم، وظلّ يضرب عليه بـ"يد الهون" حتّى فتّته!

وآخرُ جرّب معه لعبةَ المقصلة!

وآخرُ أراد أن يعرفَ كمْ من الوقت يستطيع الكتكوتُ أن يكتمَ أنْفاسه...

وآخر.. وآخر..

لا أدري ما أفزعَني أكثرُ وأنا الجَماد..

هل أنّ هذه التّصرفات اللّاعقلانية خرجت من أطفال؟

أمْ أنّه حتّى الآن وبعدما بلغوا من العمر ما بلغوا.. وفي أثناء حكْيِهم لم أجدْ كلمةً واحدة صادرةً من أحدهم توحي بالأسى والخجل من مثل هذه التصرّفات؟

ربّما يجهل بعضُهم حديثَ النبي مُحمَّد صلّى الله عليه وسلّم..

"في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر"

كذا قوله..

"إنّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء"

أتساءل بصدقٍ..

إلى أين ذهبتِ الإنسانية وتركتْ خلفَها الإنسان؟!

تالله إنْ أتى اليومُ الذي تنسَلّ فيه الإنسانية جهارًا نهارًا من بين جنْبَي الإنسان؛ فلن يدركَ قلبُهُ لغيابها أيّ أثر، ولعلّه بعد طولِ سُهادٍ يستبدلُ ذلك الخواء داخلَ صدْرِهِ بِجَورَبٍ يدفئ قدميْه!

حولهم كانت تتحرّك فتاةٌ تعملُ في النادي مُساعدة، ترتب الكراسي، ترصّ الورْد، تراقب الأطفالَ بحمّام السباحة، أثار انتباهها ذلك الحديث المُخيف الذي يدور بين الشّباب، اقتربت من مَجْلسهم، وقفتْ دقيقة، ثُمَّ أخيرًا أتى صوتُها يتحدّث بخجلٍ مُفرِط، وابتسامةُ حياءٍ بسيطة تكادُ تُشعِل فتيل الغيرة في الآنسات من الحضور.

"كيف لكمْ أن تذكروا كلّ هذه الوحشية والقسوة بكلّ هذا الضّحك واللامُبالاة؟"

كدتُ من فرطِ سعادتي بها أنْ أمدّ لها يدي من باطن الأرض؛ فتحْييها وتدعو لها بالخير، أكملتِ الفتاة ونظراتُ الشّباب لها بين مُستنكرٍ ومُستفهم...

"ألم تتفكّروا للحظةٍ أنّ هذا الكتكوت الضعيف الذي فتّتموه، أو مزّقتموه، أو كسرتم أقدامَه، ثُمَّ قطّعتموه.. هو روحٌ مثلكم؟!

أذكرُ أنّني حينما كنتُ في الحادية عشرة، وكنّا نسكن بيتًا آخرَ ابتاعت لنا أُمّي بعضَ الكتاكيت، وكان لدينا بابٌ من خشبٍ يركنُ إلى حائط، دخل كتكوتٌ خلفَه ثمّ انزاح الباب قليلًا؛ فانحشَرَ الكتكوت، جسدُه خلف الباب ورأسُه خارجه، وقد انثَنَت للخلف، حاولتُ أنْ أُخرجَه، وكلّما حرّكته وجدتُ الباب ثقيلًا جدًّا، يزداد ضغطًا على رقبته، جاءت أُمّي على ندائي ورفعتِ الباب عن الأرضِ قليلًا؛ فحرّرتُ جسد الكتكوت. ومرّ على هذه القصّة ثلاثة أعوام..

كنّا في يوم بزيارة لبعضِ أهلنا، ركبْنا سيارة أبي، كانت مرْكونةً بجانب الحائط، جلستُ بجانب النافذة..

أخرجتُ رأسي منها، ونظرتُ لأرى هل يقفُ أحدٌ خلف السّيارة.

في نفْس الوقت تحرّكت السّيارة، وحُشِرَت رأسي بين النافذة والحائط، الكلّ مِن حولي يصرخُ وأنا لا أملك حتّى أن أقبض نفسًا من الهواء، هو الهلاك لا فِكاك.

ووالله إنّي لأسمعُ صوتَ فقرات رقبتي وظهري وهي تتَصارع بين مُحاولات تخْليصهم لي وموتي لا محالة.

دقائقُ حتّى تجمّع الشارع بأكمله، ورفعوا السيارة دون تحريكِها، فتحرّرت رأسي أخيرًا وقد شارفتْ رقبتي على الكسر، والحمدُ لله على لطفه.

في ذلك اليوم، وبعد عودتنا، رأيتُ في أثناءِ نومي بيتنا القديم، والبابُ الثقيل مكتوبٌ عليه..

"هذه بتلك، والله لا يُضيع أجرَ المُحسنين".

سادَ الصّمت وكأنّما بكمَ الشّبابُ كلّهم، يغشى الخجل جميعهم، حينَها ابتعدتِ الفتاة بعدما نفضتْ يدها من نصحهم، وتركتهم للإنسانيّة القابعة داخلهم؛ فإنْ شاؤوا وعوا، وإن شاؤوا خابوا.

بلا مُقدّماتٍ ووسطَ دهشة الأرض والشمسِ معًا، نبَتَ صوتُ القمر حازمًا خاشعًا مرددًا:

- سبحانَ مَن جعل للروحِ على الرّوحِ حقًّا!

وسبحان مَن جعل الرّحمة داخل الصّدور حقًّا!

وسبحانَ مَن صاغ الإنسانية للإنسان، وليست عليه،

وجعل فيها كلّ الحقّ..

ردّدتِ الأرضُ والشمسُ من خلفه...

"سبحانه.. سبحانه"

***

كنبتةٍ من فضولٍ استلمت الشّمسُ رأسَ الحديث مُستفهِمة:

- هل تجمّعات البشر كلّها بالنوادي؟

أسرعتِ الأرضُ لإجابتها:

- لا، ولم تكنْ من قبل، لكنّ القرن الذي يعيشه البشر الآن تغيّر أهلُه كثيرًا، صاروا أقربَ لبعضٍ مكانًا وأبعد قلبًا.

دخلَ القمرُ سائلًا:

- وأين كان تجمّعهم؟

- أغلبُها كان بالمساجد.

مُستنكِرًا اعترضَ القمر:

- لكنّها أماكنُ ساكتة صمّاء لا حياةَ بها، فكيف يصبر البشرُ على اللقاء فيها؟!

ابتسمتِ الأرضُ بقوّة حتّى بدا أنّ المحيطات بها توشكُ أن تفيض إلى الفضاء، فتغمره، وأردفت:

- يا "صُنعَ الله"، أتدري شيئًا عن ضمّة الأمّ وهي في حالة رضا عن ولدها، أو في حزن منه؟

لكنّها في الحالتيْن تضمّه ضمّة المُشتاق إليه، الغافر لذنبه، المشفق عليه!

هكذا هي المساجدُ مع أهلها، كلّما خطا البشرُ داخلها خطوة، فكأنّ أعمدتَها تتهيّأ وتتزيّن، يتحسّسها الإنسان ويستند عليها،

أو يتمشّى بجانبها، أو لعلّه يُلقي عليها نظرةُ دون انتباه؛ فتسقطُ عينُه على طفلٍ أسفلها يعدّ على أصابعهِ.

"كم سورة تبدأ بـ "الحمد لله"؟"

والكلّ يجهلُ أنّ كلّ ركن من الأركان قد حفظ وجه زائره واسمَه وصوتَه، وعددَ أنفاسه التي زفرَ بجانبه، كلٌّ سيشهد على صاحبه..

"يا ربّ، هذا صلّى بجواري"

"يا جبّارُ، هذا استندَ على حائطي"

"يا ملكُ، هذا رفعَ ورقةً عن أرضي"

"يا جميلُ، هذا جمّل أرْكاني وعطّرها"

"يا كريمُ، هذا يُحبّ المسجد؛ فشفّعني فيه"

ويجتمعُ الصّحاب به، منذ دخول الواحد منهم من باب المسجدِ؛ فلا يملك من نَفْسِه إلّا أنفاسه، أمّا جوارحه.. فيدُه تُعانَق كلّ دقيقة، ووجهُه يُقبَّل كلّ دقيقة، وشفتاه تبتسم كلّ

دقيقة، فلا يذكرُ المرءُ منهم متى أُخِذَ كلّه بتلك الطّريقة، وامتلأ لهذا الحدّ، وكأنّ أحدًا من الجنّةِ بخَّ ساعة من نعيمها في صدْرِه.

ويكونُ حديثهم لبعضهم كأنْ تُغمَس قلوبهم في ضحكة؛ فيُكوّر الحزنُ داخلهم، وينزوي بأحدِ الأركان.. فلا يدري المرءُ منهم أيشكرُ الغمسة أم الضّحكة؟!

ثُمَّ يبدو وكأنّ الدّهشة نصبَت نفسَها دليلَ حضور، فتُصبّ في النّفوس صَبًّا، وصوت قارئ كـ "المنشاوي" الذي رحلَ منذ سنين يتجلّى بين شفتيّ مُحبٍّ لله، وكتابُه في قول الملك جلّ جلالُه {قلوبٌ يومئذٍ واجفة}.. فتُقسِم الأركان والحوائط والأسقف أنّها تسمعُ الآيةَ للمرّة الأولى!

أغبطُهم وأنا أسمعُ رزق الله وهو يتنزّل عليهم تترًا في دعاء، وأراه في ابتسامة، وأجدُه في سلام، فأحمدُ الله أن رأيتُ هذا الخير كلّه وشَهدتُ عليه.

بعدَ تفكيرٍ قد تمكّن من القمر حتّى أعياه، قال مؤكدًا:

- لكنّ المساجد ليستْ للمزاحِ واللعب.

وبثقةٍ تهدّ أعظمَ الجبال قناعةً، ردّت عليه الأرض:

- إذًا اسمعْ يا "صُنعَ الله" وتدبّر الحكاية...

بصلاةِ التّراويح في ليلةِ السابع والعشرين من شهر "رمضان" لعام ألفٍ وأربعمائة وأربعين من هجرةِ مُحمَّد صلّى الله عليه وسلّم، منَّ الله على الإمامِ برزقٍ من الفهم والعلم، فأدركَ أنّ قلوب الناس لا تؤتَى من بطونها، بل يُدخَل إليها من أسماعها إلى أرواحها؛ فتطمئنّ بأمرِ الله.

وفي أثناءِ الخطبة التي تكونُ بين الرّكعات سأل الإمام بعض أسئلةٍ في أمور الدّين والدّنيا، ووزّع جوائز، كان مُجَدِّدًا في هداياه، وجعل فيها ما لم يعتدْ عليه الناس (البطيخ، والفراخ، واللّحم)، وهو ما ليس مألوفًا في مثل هذه السابقات حيث يُكتَفى بأنْ تكون الجائزة كتابًا أو كُتيّبًا وأذِن لَمَن يجيب سؤالًا أنْ يختار بنفسه جائزته!

كلّ هذا وسطَ حماسة الناس وسعادتِهم، ثمّ أتى السؤال الذي يختمُ به الحديث، فنادى الإمامُ فيهم..

"مَن أراد أن يُسأل ولَه جائزة خمسمائة جنيهٍ؛ فليتقدّم"

سكتَ الجميع اندهاشًا من العرْض، وانتظارًا لذلك الشجاع الذي سيتقدّم، طالبوه بمعرفة السّؤال، لكنّه رفض ضاحكًا؛ فالجائزة كُبرى....

مرّت دقائق حتّى ارتدى أحدهم رداءَ شجاعته وقام إلى الإمام؛ فيُسأَل!

وهنا قال الإمام مُطمئنًا..

"لا تخفْ، لك وسيلة مساعدة؛ أنْ تستعين بصديق، يُسمح لك أن تتّصل بأحدهم هاتفيًّا ليُساعدك"

ضجّ المسجدُ بالضحك، وهو ما ليسَ مُعتادًا في هذا الزمان من المساجد وأهلها.. أن يتضاحكوا!

سكنَ الجميع، طرحَ الإمامُ السؤال والذي كان يسيرًا ولطيفًا في آن، اتّصل الرجلُ بأحدهم ووضع الهاتف أمام الميكرفون وأنصتَ الجميع.

هل أخذَ الرّجل الخمسمائة جنيهًا؟

ماذا كان السّؤال؟

هل سأل الإمام أسئلة أخرى؟

هل...؟

هل...؟

كلّ ذلك لم يكنْ يعني شيئًا لأحد..

فقط في تلك الدّقائقِ كانت الدهشةُ داخل الصدور تتجلّى بكلّ ألوانها!

ففي ظلّ الهموم التي ملأتْ أرواح هؤلاء القوم ونفوسهم وبيوتهم وأوطانهم؛ استطاعت تلك الدّقائق أن تذهب ببعض الهمّ، وتأتي إليهم ببعض الحياة.

مَن يمرّ أمام المسْجد كان يقفُ انتباهًا وفضولًا لصوت الضّحك الذي يأتي منه، وذلك الحديثُ الطيب الذي يدور داخلَه، وتلك الأمورُ الدينية والدنيوية التي تدخلُ على عقل الحضورِ بطريقةٍ تجعل الناسَ جميعهم لا ينسوا أبدًا ذلك الفيضَ مِن خيْر الذي يسمعوه!

بأناقةٍ من حديث، أدلَتِ الشمسُ بدلوٍ من جمال، قالت:

– لم يكن الأمرُ عجيبًا، لكنْ كان عظيماً، فقدْ نسي البشر كيف يكونُ تجمّعهم في الله، فتلك الجوائزُ والهدايا من فضل الله، وكلٌّ من عند الله، والخيرُ سيُساق إلى أصحابه ولوْ كانوا في بروجٍ مشيّدة، إنّما هذه الإنسانية التي تنبتُ من أفواههم في كلماتٍ، وهمسات، وضحكات، وابتسامات؛ لَهِي الجنود المُختبئة في أكمّة البلاء، إنْ خرجتْ أُذِن حينها للنّورِ أن يدخلَ فيستوطنَ بأمرِ الله ما شاء، ويُقيم ما شاء!

بامتنانٍ تابعتِ الأرضُ كلماتِ الشّمس بكلمات:

– كلٌّ في مكانه يؤدّي أمانة علمِه وعمله، لكنّ الفارق يكون في كيفيّة تأديته لذلك الأمر.

فارقٌ كبير بين إنسانٍ بلا إنسانية تُحرّكه، وإنسان تفيض الإنسانيّةُ منه كأنْفاسه، ثُمّ يأذن الملك لمثلِه أن يكون في الناس خطيبًا، وهو في نفسه خادمًا لدينِ موْلاه؛ فيجعل من همسه ولمسِه وعينِه وفكرِه وقلبِه.. وكلّه؛ جندًا من جنوده.. فيا لله مِن رحمة تتبعها رحمةٌ تغمرُها رحمة، ولا تُقام الحياة إلّا بهذا الفضل من الله.

***

زلزلَ القمرُ فضاءَ الكون وهو يغمغمُ في نفسهِ غمغمةً وكأنّه يفحصُ أمرًا ما تفْحيصًا، وينقرُ عنه تنقيرًا، سأل بعدها ببعض فضولٍ:

– يا أرضُ، تحاولين إفهامَنا أنّ كلّ شيء جندٌ من جنود الله، يكون كاليُسْر المُصاحب للعسْر، إذًا.. هل تُقام الحياةُ بـ موت؟

– ماذا تعني يا "صُنعَ الله"؟

– هل يكون "الموت" جندًا من جنود الله، غير أنّه يفعل ما يؤمَر، أقصد هل يكونُ وقعُ الموت بكلّ ما فيه من هَمّ وحزن وفراق جنديًّا يُقيم الله به نفوسَ الناس؟

– نعم.

– كيف؟ وقد أوجعهم بهذا الفراق، وألبسهم الهَمّ والغم؟

كيف يكون من الموت حياة يا أرضُ..؟!

نقلتِ الأرضُ بصرَها بين الشمس والقمر، وجدتِ الأولى وقد امتلأتْ فضولًا هي الأخرى لتسْمَع، فأطرقتِ الأرض وأطالت الفكْر، ثُمَّ بعدَ دقائق قليلة قالت:

– كان شابًّا في الخامسة والثّلاثين من عمره، جميل الخلق، حَسَن الصّورة، طريفَ الهيئة، مُتسرْبلًا باللّطفِ في كلّ أفعالِه، محبوبًا من الجميع، رُزِق من الله الصّوت الحَسَن؛ فأحبّ الإنشاد، صدرتْ له أنشودة تهيّج الأحزان في القلوب، وتُبكي العيون، ردّدها الناسُ وحفظوها، كانت وجهًا جديدًا في هذا الباب من الكلمات.

معلومٌ أنّ الأناشيد تغنَّى لِتُطرب الرّوح، أمّا هذه فكانت تهزّ الرّوح هزًّا، ومع ذلك أقبلَ عليها الناس، وكأنّ الله أرادَ للقلوب أن تجتمعَ عليها اجتماعَ حبٍّ وانتباهٍ وموعظة.

تحدّث الجميعُ عن ذلك الشّاب "مشاري" الذي أحْيا شيئًا في القلوبِ كان قد مات، فرآه البعضُ جنديًّا من جنود الله في إفاقة النّفوس وتنْبيهِها، ولم يزدِ الأمرُ عن هذا.

كانت كلماتُ أنشودته...

"فرشي التراب.. يضمّني.. وهو غطائي

حوْلي الرّمال.. تلفّني.. بل من ورائي

واللّحد يحكي.. ظلمةً.. فيها ابتلائي

والنّور خطّ كتابه.. أُنسي لقائي

والأهلُ أين حنانُهم؟!.. باعوا وفائي

والصّحب أين جموعُهم؟!.. تركوا إخائي

والمالُ أينَ هناؤه؟!.. صار ورائي

والاسمُ أين بريقُه؟!.. بين الثناء

هذي نهاية حالي..

فرشي التراب.. يضمّني.. وهو غطائي

حوْلي الرمال.. تلفّني.. بل من ورائي

واللّحد يحكي.. ظلمةً.. فيها ابتلائي

والنّور خطّ كتابه.. أُنسي لقائي

والحبّ ودّع شوقَه.. وبكى رثائي

والدّمع جفّ مسيرُه.. بعد البُكاء

والكونُ ضاقَ بوسْعه.. ضاقت فضائي

فاللّحد صار بجثّتي.. أرضي سمائي

هذي نهاية حالي..

والخوفُ يملأ غربتي.. والحزن دائي

أرجو الثّبات وإنّه.. قسماً دوائي

والربّ أدعو مخلصًا..

أنت رجائي

أبغي إلهي جنّة.. فيها هنائي"

حتّى أتى يومٌ وضجّت الأنحاءُ بخبر حادثٍ أدّى إلى وفاة الشّاب، مات "مشاري"، مات الصوت، مات الجسد، رحلت الرّوح، لكنِ انتفض الكثيرُ من الناس، الكلّ يقبل على أنشودته، يتعجّبون.. وكأنّه يحكي نفسَه، يصبّها صبًّا في كلماتٍ، يعيدون سماعها، مَن كانوا يحفظونها صغارًا كأسمائهم دون فهمٍ للكلمات، صاروا يردّدونها كبارًا بعلمٍ تام بالمَعاني، يتدبّرون كيف الموت قريب، والكلّ زائل، ولا شيء يدوم!

كانت تذكرة مع أنّها أنشودة، لكنْ سبحان مَن يجعل في كلّ شيء حكمةً ورسالة، ويتغمّدنا بالمواعظِ تترا حتى نفيق إلى أمرِ الله.

في ذاك اليومِ اجتمعَ الخيال مع الحقيقة، الفنّ مع العظة.. توفّي المُنشِد، وبقيتِ الكلمات هي الأثر، ويا لهُ من أثر..

بعضُ الناس قد يُحّقر من شأنِ الكلمة، والبعضُ قد تذهب بنفسِه كلّ مذهب، أصبح "مشاري العرادة" حبيسَ اللّحد، أرضه وسماؤه.. كما أنشد!

كان أوّل مَن صدحَ بالجَمال مُذكّرًا بالآخرة، وداعيًا إلى الخير..

اليوم يسمع النّاس "فرشي التراب" بأفئدةٍ أوْعى، فتنهمر الدّموعُ مهراقة، مُتّعظة بحِدائه، وحزينة لفراقِه، تعيد حساباتِها من جديد، تستغفر، وتتوب، وتأمل في الخير ولا تغفل، فالموتُ أقربُ ممّا يظن الجميع.

كان "مشاري" في حياته واعظًا؛ وهو اليوم أوعظ منه حيًّا!

***

انتظرتِ الأرضُ من القمر تعليقًا، اعتذارًا، قناعة، أي شيء، انتظرتْ منه أن يهمسَ بشيء، لكنّه ظلّ يغترف من السكوت ويملأ منه فمَه، نقّلت بصرَها إلى الشّمس، وجدتها تسيح في تفكيرها، تهمسُ إلى نفسِها بكلمات، وتردّ عليها بكلمات، فتدخّلت الأرض للمُساعدة:

- ما بالكِ يا "رحمَةَ الله"؟

ابتسمتِ الشّمس مُنتبهةً لنداء صاحبتها، فضحكَت ضحكةً خفيفة ثُمَّ مالَت قليلًا تجاه الأرض هامسة:

- كنتُ أشاهدُ حديثًا قديمًا عالقًا في الفضاء بين الكلمات، على إثْره تقوم الحروبُ وترقد!

بحماسٍ طلبتِ الأرضُ أن تسمع، وبخجلٍ تمنّعت الشمس، فلمّا حزنتِ الأخيرة، سارعتِ الأولى لإرضائها، فقالت:

- اسْمعي يا رفيقة الأيام..

بيومٍ من الأيام، صعدتِ الكلمات حيثُ الفضاء، تعاركت وتدافعت، كلّ يُقاتل في الظلماء!

احْتمت بعضُ الحروف على أطراف النجوم، مكتومة، مقطوعة، مخنوقة، مقتولة..

ثُمَّ في لمحةٍ أدبيّة، تدخّلت المعاني لتفضّ عراك الكلمات،

تقول "الحكمة"..

رأيتُ المعاني تتدافع، تمزّق كلّ الأسوار، هذا معنى يلهث عطشًا، وهذا يسطعُ من أنوار!

وحروفُ الصّمت تلاعبهم وتناطحُهم كما الإعصار!

والمعنى الكامنُ في صدْري.. لي وحدي.. كشعلة نار!

وتهتفُ فخرًا نجوم الجهل والإهمال..

"آنَ للإساءة أنْ تُكيّل هنا بالمال"

والكلّ يسابق ويُلاحق بعض الأقوال،

بعض الحبّ المُختبئ عند أسير،

بعض الشّوق المُتلاطم عند كثير،

بعض الودّ، بعض القرب، بعض الكره بلا تبرير!

والعيدُ يقف مُنتظرًا حلول السّلم،

حلول الميم المفقودة منذ أيام،

واللّغة العربية تغدو كطير حمام،

والكلمات تُرصُّ.. تلتقي، تتعانق، تبتسم،

تُـقْـبِل، تُـقْـبَل، تُـقَـبَّل.. وتحيا بـسـلام..

وجدتِ الشّمسُ الأرضَ وقد سُرّت بالحكاية، فَرِحت بها وجَذِلَت، ولمّا انفسحَ لها صدرها، تحدّثت:

- أتعلمين أنّ الحروب تقومُ بكلمة، وتسقط بكلمة، والنصر بكلمة، والهزيمة من كلمة، والحبّ بكلمة، والبغض من كلمة، والحياة في كلمة، والموت من كلمة..!

تدخّل القمرُ وقد رفرف عليه جناحُ الودّ، فخفض له جناح العناد مُضيفًا:

- سمعتُ البَشر يتهامسون ليلًا..

"بينَ كَسْبِ القُلُوبِ وكَسْرها، خَيطٌ رَفيعٌ اسْمَهُ... أُسْلُوب!"

هشّتِ الأرضُ وبشّت لاستعادة القمر بينهم في حديثهم ثانية، فعجّلت بقولها:

- في القرن الثّاني من هجرة النبي مُحمَّد صلّى الله عليه وسلّم، حينما كان "هارون الرَّشيد" يطوفُ ببيْت الله، يدعو ربّه وموْلاه، يسأله لطفَه وهداه، أقبلَ تجاهه رجلٌ بسيط لا يكسوه جلالُ الملوك، ولا جَمال الأمراء، ولا فخْرُ الوزراء، لكنّه أقبلَ عليه، ووقفَ بين يديه وقال بقوّة، دافعًا بكلّ الهيْبة والخوفِ والفزع بعيدًا..

"يا أميرَ المؤمنين، إنِّي أريدُ أن أُكلِّمَك بَكلامٍ فيه خشونةٌ؛ فاحتملْهُ لي"

كان يريدُ أن يعِظه، ويوجّهه، ويأمرُه بالخير لا الشّر، ويدعوه للبرّ لا الفُجور، ويسألُه العونَ لا العُدوان، لكنّ حديثه كان حديثًا مُقبضًا مُخيفًا، يوتّر النفس ويقلّبها على شفا النار حتى يحرقَها، وما بهذا كان النّصح في الله، فردّ عليه "هارون"..

"لا، ولا كرامة، قد بعثَ اللهُ مَن هوَ خيرٌ منكَ إلى من هُوَ شرٌّ منِّي؛ وأمره {فَقُولَا لَهُ قَولًا ليِّـنًا}"

بدَا التأثّر على وجه الشّمس وهي تقول في ودٍّ:

– تالله إنّ الحروف تُحيي وتُميت، وكأنّهم جنودٌ في معركة الحياة، أفلا يتراحمُ الناس؛ فيكفّوا عن بعضهم جنود الكَسر، ويدفعوا إليهم جنود الجَبر؟ ألا يفعلوا!

أكّدتِ الأرضُ بحركةٍ منها على كلماتِ الشّمس، عادت الابتسامةُ تسكن وجهَ القمر، وتبعث فيه هدوءًا وثباتًا، نبّأ بلُطفٍ:

– ذاتَ ليلٍ منّي ومؤانسةٍ من الإنسان، أقبل أحدُهم فوقف يتلحفُ بالظّلام، ثُمَّ نامَ على الأرض مُتكئًا على عُشبها وطينِها، رافعًا رأسه يُكلّمني ويُجادلني كأنّما أنا صديقٌ يعرفُه ويسامره، هاتفًا نادى...

"أتدري يا قمرُ، وددتُ لو أنّ لله جعلَ للأصوات مكانًا تلجأ إليه في نهايةِ رحْلِها وترحالها، تستريحُ من أمواج الهواء الحاملةِ

لها؛ فتركنُ قليلًا أو كثيرًا.. لا يهمّ، بل المهمّ أنْ أجدَها حيث أعلم، وإذا أردتُ أنْ أعلم.

فما أروعَ أنْ أسمع مزْمار "داود"- عليه السّلام-، وتسبيحه لربّه!

وتسبيح "يونس" الذي نجّاه من الظّلمات الثلاث!

وقَولَة يوسف لإخوتِه {لا تثريبَ عليكم اليوم}!

وذاك الحديث الذي دارَ بين إبراهيم وقومِه، طفلٌ يواجه رجالًا!

ونبرة فخْرٍ في صوتِ "العبّاس" وهو يقول عنْ رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم..

"هوَ أكبرُ منّي، لكنّي ولدتُ قبْلَه"!

وأذانُ "بلال"، كيف كان؟!

وتُرى كيف أتى صوتُ رسولِنا وهو يحمّس صحابته، ويحمل الأحجارَ معهم..

"اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ؛ فَارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ" !

لو أنّنا- فقط- نسمعُهم، ونتذوّق ذاك العسلَ المُنكّهة به أصواتُهم لأدْركنا شيئًا من نعيم الجَنّة قبلَ بلوغها يا قمرُ والله.

***

مرّ الكثير، وبقيَ القليلُ من وقتِ الكسوف، ساعة أو يزيد قليلًا، تحسّرتِ الشّمسُ بصوتٍ هامسٍ في نفسها، وتملمَلَ القمرُ بكبرياء يشوبُه بعضُ الحنين، أمّا الأرضُ فقد شُغل بالُها، نادتْها الشّمسُ قلقةً مُتسائلة:

- يا أرضُ، ما بالكِ قد كسفتِ وأفلتِ، والاثنان منّا لا منكِ..!

بدَا على وجْه الأرض الحزنُ وهي تُلملِمُ الشّجونَ الذي تجلّى في سكناتِها وحركاتِها، تحدّثت بضعفٍ:

- بعضُ القصصِ تتوجّع منها القلوب، وتنفَطِر أمامَها الأفئدة، وتسيلُ لأجلِها العيون، وترِقّ لها الأكباد، وتحْنو عليها الضّلوع، وقد تذكّرتُ كلّ هذا، وتوجّعتُ من كلّ هذا!

- وما يوجعُكِ!؟

- أنِّي لا أملكُ من الأمْرِ شيئًا، لا أدفَعُ ضررًا، ولا أُنزلُ عونًا، مأمورة ولا فِكَاك.

- وهلْ ستكون رحمتُك بالخلْقِ أكبرَ من رحمةِ الخالق يا أرضُ؟

هل يصوّر لكِ فكرُكِ أنّ الآلامَ والأحزان والهمومَ والغموم لا يملكُ اللهُ أنْ يدفعها كلّها مرّةً واحدة، ويصرفَ الأذى كلّه صرفةً واحدة، ويزلزلَ الظّالمين زلزلةً واحدة.

- يا "رحمَةَ الله" ما قصدتُ هذا.

- يا أرضُ، إنْ أراد اللهُ إنهاءَ كلّ الشّرور لفعل، لكنّ هذه هي الدّنيا، فلو أنّ الله صرَفَ البلاءاتِ لصارت جنّة، فكيف يميّز اللهُ الخبيثَ من الطيّب، ويرزقُه في الآخرة الجنّة؟!

سكتَتِ الشّمسُ والأرض، فقال القمر:

- هل نَسيتِ جندَ اللهِ مِن حوْلنا يا أرضُ، أليسوا هُم عتادَ الحرْب؟ أليسوا هُم الأسْلحةَ التي يتسلّح بها كلّ مؤمنٍ بالله؟

ومَن اتّخذ مِن جند الله سلاحًا.. ألا يغنَمُ يا أرضُ؟ ألا يفعل؟!

تبسّمتِ الأرضُ من مشرقِها إلى مغربها، وهي تسمع كلماتِ الشّمسِ والقمر تبثّاها المعاني الطيّبة الرّاسخة، ويدْفعان عنها كلّ ما يضعضِعُ الثّبات داخلها:

- صدقْتُما، وجنودُ الله مِن حولي كثير.

بتمايلٍ وغنجٍ تدلّلت الشّمسُ سائلة:

- هل انْتهتْ قصصُكِ يا أرضُ؟

فزِعتِ الأخيرةُ من السّؤال، واعترضَتْ من فوْرها:

- وهل تنتهي الذّاكرة!؟

فممّا لا يفارق أبدًا ذاكرتي..

بعامِ ألف وتسعمائة وتسعين، تلك الأسرةُ العفيفة الشريفة، والتي كانت ببقعةٍ من بقاعِ القاهرة؛ فقهرتها بظلامها، امتحن اللهُ تلك الأسرةِ، وابْتلاها في رزقها، فتعاظمَ عليهم الدّيْن فصبروا،

وسُرِقوا فصَبَروا، وضاقت عليهم الدّنيا فصبروا، وانفضّ عنهُم عونُ النّاس لهم فصبروا، وجاءهم الهمّ من كلّ حدبٍ وصوْب فصبروا!...

ثُمَّ خسرَ ربُّ الأسرة كلّ مالِه في صفقةٍ كبيرة أخذت منه جُلّ ما يملكُ، وتركتْه بنفسِهِ وعيالِه وزوجه، ولا زيادة!

ومرّت ثلاثةُ أعوام والدّنيا تضيقُ عليهم، ويشتدّ بلاءُ الله أكثر، وعلى الرّغمِ من كلّ هذا كان الأبُ مضيافًا، كريمًا، يستقبلُ أحبّائه، ويهشّ ويبشّ لرؤياهم، يقول ذاتَ سرور..

"وليس شيء أحبّ إليّ مِن الضّيف، رزقُه على الله وأجرُه لي!"

بيومٍ، وقبلَ أن يُؤذّن المغرب بدقائق، وكان منتصف شهر "رمضان"، طُرق بابُ منزلهم طرقًا خفيفًا ضعيفًا، لم ينتبهْ له إلّا الأمّ وحدها؛ فأرقلت حيثُ الباب وفتحتْه، وجدتْ طفلًا صغيرًا قصيرًا حافيًا لا يزيدُ عن عمْر السّابعة، يقف أمامها رافعًا رأسَه، طالبًا بتوسّلٍ..

"أطْعميني ممّا أطعمكِ الله"

وقفتِ الزّوجة أمامَه لدقيقةٍ مصدومةً، كيف صعدَ الطفلُ وبابُ البيت الكبير مُغلَق؟!

لم تُطلِ التّفكير، ودخلتْ إلى المنزل، فلمْلَمت من طعامِ الإفطار ما يكفي الطّفلَ ويزيد، لم تتركْ صنفًا إلّا ووضعت منْه، وعلى الرّغم من تواضعِ الطّعام إلّا أنّ الطفل أظهر عظيمَ الامتنان وهو يتلقّف منها الكيسَ الذي يحوي الطعام بين يديْه. غادر مسرعًا شاكرًا الزّوجة، تحرّكت تجاه السّلم تنظرُ إليه وتتابعُه وهو في طريقِه إلى الأسفل، نزل الطفل طابقًا ثُمَّ الثاني، وفي الطّابق الثّالث لم ترَ الأمّ له أثرًا!

ظلّ ذلك الأمرُ يؤرّقها ويشغلها، سألت جيرانها..

"هلْ رأيتم طفلًا غريبًا؟ هل طرقَ بابَكم أحدٌ؟"

إجاباتُ الجميع جاءت بالنّفي التّام، فلم تجدْ بديلًا عن الاسْتسلام، ثُمَّ لا تمرّ الأيام حتّى يتفاجأ الجميع بفتحٍ غير مسْبوقٍ

من الله على الزّوج، مالُه الذي خسرَ عادَ إليه، ودينُه قضيَ عنه، وما سُرِق منه ارتدّ أضعافًا عليه، وها هو لا يمرّ الشّهرُ حتّى يذبح ناقة أو اثنتين وتيرةً لله!

نظرتِ الشّمسُ نظرةَ حيرةٍ إلى الأرضِ، فمعناها هذا لم يُسبَق إليه، ولم يُنزَع عليه، لكنّ ما وراءه يخلبُ القلوب، ويسحِرُ العقول، همسَتْ بصِدْق:

– تالله يحقّ لمثل هذا أنْ يُكتَب على جبهةِ الأيام، فلا هو يُنسى ولا يَنسى.

تبسّمتِ الأرضُ ممتنّة، فمالَ عليها القمرُ خالعًا عن نفسه ثوبَ الكبرياء والهيْبة، سائلًا بكلّ ما تحملُه كلمةُ السّؤال من استجداء وفضول:

– هل مِن مزيد؟

كادتْ ضحكةُ الشّمس من استجداءِ القمر أنْ تثقبَ سرْبالَ الفضاء الأسود، وتحيلَه شمسًا مُنيرة، فقد طغتْ ضحكتُها،

وانتشر أثرها بكلّ مكان، عاجلتها الأرضُ بنظرة مُعاتبة لكنّ وجهَ الشّمس المُشتعل بالاحْمرار من كتْم ما هو أكثر مِن الضّحك جعل الأخيرة تنفجرُ من مرآه هي الأخرى، دقائقُ حتّى تماسكتِ الأرضُ، فوجدتِ القمرَ منزويًا، غاضبًا منها وعليها، فأسبغَتْ على نفسها نفسًا أخرى من وقارٍ، وحَكَت بجديّة:

- منذُ أيّام قلائل، وعلى رأس الشّهر الهجري الماضي، أراد رجلٌ حسَنُ السّريرة، طيّب الكلمة، حلوُ الفِعَال؛ أن يُخرج صدقةً لله ويُطعِم الناس.

على غيْر عادته، طار النّومُ من عينه تلك الليلة، يتقلّب على نارِ السّهاد، فكرةٌ تدفعه، وفكرةٌ ترفعه، وفكرةٌ تدكّه دكًّا، ظلّ يتحامَلُ على روحِه، ويراودُ نفسَه عنْ نفسِه، حتّى يبلغ رأس النّوم فيغتنمه بين يديه، لكنّ الأفكار تنزلُ عليه تَتْرا، لا تنفض يدَها عنه، فإذا ما أتى على تذكّرِ صدقتِه حتّى انبرى عقلُه بفكرةٍ، ووجدَ فؤادَه يثبّ وراءها، باتَ ليلَه كلّه منشغلًا بها، حريصًا عليها.

ولمّا أتى النّهارُ، قام قيامةَ الأفهام في العقول، والحبّ في القلوب، وذهبَ إلى أماكن صنّاع البيتزا، فطلب أفضلها وأطعمَها، ثُمَّ ذهب إلى أماكن صناعةِ الحلويات، فطلبَ أحْلاها وأجْمَلها، ولمّا تجهّز طلبُه مرّ على السّوق، فاشترى أساسياتِ كلّ منزلٍ من طعام، حمل كلّ ما ابتاع بسيارته، وباتَ يمرّ على البيوتِ التي يعرفُ أهلَها وتعفّفهم واحتياجهم، فيطرقُ البابَ، ثُمَّ يقول بأدب..

"هلّا قبلتُم هديّتنا؟".

يظلّ الوصفُ مهْما كان نوعُه وطريقتُه وأسلوبُه؛ عاجزًا عن اقتباسِ الفرحة الحقيقيّة، وفي ثوبٍ من التّخيّل يحيا الوصف ولا زيادة!

لكنْ لو أنّ ابتسامةَ الأطفال عنْد مرأى قطع "الجاتو" وأطباق "البيتزا" وهي تدخلُ إلى بيوتهم، فتستقرّ في قلوبهم قبل أن تنزلَ على الطّاولة، لو أمكنَ لأحدٍ أن يقبض قبضةً من تلك الصّرخةِ

من فرح التي تجلّت على وجوهِهم، لأحسبُ أنّ الشّمسَ قد تُضاءُ في اليوم مائةَ مرّة من داخل البيوت، وليس خارجَها بعد الآن!

هُنالِك حدّثته زوجُه، تسأله عمَّا يفعل؟

فقصّ عليها قصّته ونيّتَه، فتدبّرت واستَبْشرت، فأتبع كلامَه معها بقوله..

"خيرُ الصّدقةِ فيما يشتهيه الفقيرُ ولا يستطيعُ الاقتراب منه، حيث يجدُ دائمًا أنّ هناك ما هو أوْلى بماله ونفقتِه".

علّقت الشّمسُ بكلمةٍ من امتعاض:

- ثمّ تجد أحدَهم لا يُخرِجُ إلّا ما فسدَ من طعامه وشرابِه، وما تقطّع من ثيابه، ولسانُه يهتف خشوعًا.. كلّ ذلك لله!

دُهشَ القمرُ من حديث الأرضِ دهشةً أوْدت بكلّ ثباتِه وهو يهتف:

- حقًّا.. لله جنودٌ بكلّ مكان، سبحانَه سبحانَه!

بحماسٍ قالت الأرض:

– أزيدُكَ دهشة يا "صُنعَ الله"؟

عاجلَها القمرُ بصَبابةٍ:

– لا تتوقّفي أبدًا عن الزيادة.

امتلأتْ أركانُ الأرض خجلًا وحياءً من كلماتِ القمر، تنفّست بقوّةٍ تطردُ عن نفسها ارتجافةَ الوَلَه، تابعتْ حديثها:

– ومِن البَشرِ رجالٌ يُحيّرونك فوقَ حيرتك، ويُدهشونك أعظمَ مِن دهشتك، يستعدّون للحربِ والمبارزة، يتأهّبون لها، يُشمِّرون ويُجهزون، لا يولّون، ولا يُدْبرون، حرصُهم على الموتِ يفوقُ حرصَهم على الحياة!..

ترى المرءَ منْهم إذا ما نادى المُنادي؛ شدّ حيازمَه، وقام على ساقِه وإنْ كانت عرجاءَ كسيرة، وشحذَ للحرب عزيمتَها، وللنّفس قوّتها، وللجنّة صيحتها!

ويستعينُ بالله قبْل السّيف، وبالسّيف قبلَ الأهْل، وبالأهل قبل الرّحيل، وبالرّحيل على الدّنيا، وبالدّنيا على الآخرة، وبتجارتِه مع الله ليدخلَ جنّةَ مولاه!

ثُمَّ حين يأتي وقتُ الرّاتب، أمرٌ من أمور الدّنيا لا مفرّ منها، يتقوّى المرءُ بها على متاعِ الحياة؛ فيطعِمُ أهلَه وولدَه وزوجَه، وعلى الرّغم من هذا.. كان بجيش "هارون الرشيد" عشرون ألف جنديّ لا يكتبون أسماءهم في "ديوان الجند"؛ فلا يأخذون رواتبَهم، لكنْ كان لا يهمّهم غير ألّا يعرفهم أحد، يكفي أنْ يعرفهم الله.

***

نصفُ ساعة.. ولا زيادة!

أدركَ ثلاثتُهم هذا، نزلَ الحزنُ على وجوههم، لا يملك أحدُهم البوحَ بما يعتمِلُ في نفسه، فهذا هو نهجُ الكوْن في كلّ شيء، اجتماعٌ وافتراق، لا فِكَاك حتّى لِمَن هُم مثلهم، فهي الدّنيا تنزل بثقلها على الجميعِ حتّى الكواكب، لهم مِن أوجاعها نصيب!

بحنينٍ بالغٍ سألتِ الشّمس:

- هل في الفراق مِن حكمة؟

نظرتْ لها الأرضُ وقد لمعت عيونُها ذات الماء كلّها، فتدخّل القمرُ قاطعًا الحديث:

- ليُدرك معنى اللّقاء، يكتب اللهُ علينا الضدّ لنشعر بنعمة ما خَلَاه، فلوْلا افتراقُنا ما ثمَّنّا اجتماعَنا هذا.

- هل في اجتماعِنا من حكمة؟

هنا أجابتِ الأرض:

- كلّ الحكمة يا "رحمَةَ الله"، فما الكسوفُ اليوم إلّا جنديّ من جنودِ رحمته ليجمعَنا؛ فتحلّ علينا ساعةٌ من حياة.. هي كلّ الحياة!

لا ندري كيف جرى منّا، وعلى ألسنتنا فيها، ما جرى!؟

الكونُ كلّه لا يدركُ كيف أنّ أركاني تخفقُ وأنا لا أملك قلبًا يخفق!

الفضاءُ أجمعُه لنْ يستطيع تفسيرَ انتفاضة روحي ورعشةِ شفتيّ، ولمعةِ عيني؛ مِن معنى فراقكم، وأنا مع كلّ هذا لا أملكُ العينَ ولا الفمَ ولا الرّوح!

وحدَه التّاريخُ يُدوّن إنسانيّتَنا، وما منّا، ولا معنا، ولا فينا إنسان!

وحدَه التّاريخُ والعام والأيّام.!

عادَ الصّمتُ، فأسرعتِ الأرضُ بنفْضِ عنها ما حلّ بها، وقالت بحَماسة:

- ألَا أقصّ عليكم اجتماعًا آخرَ كان به عجيبُ القدر؟

أشرقَ وجْهُ القمر، وزُيّن وجهُ الشّمس، وكان الرّضا كلّ الرضا، فاستهلّتِ الأرضُ حديثَها:

- في السّنواتِ الأولى، تحرّكت الأقدامُ بحفاوةٍ وسعادة، يجتمع بعضُ الصّحاب ببيْت "سعد بن عُبادة" رضي الله عنه، يدخل المرءُ فيسلّم على أخيه، يعانقه ويضمّه؛

فتَجِد الأخوّة بينهم.. عهدٌ سماويّ الطباع!

يقول الواحدُ لأخيه..

"كيف أنت؟"

فيخبّره الآخرُ خبَرَه..

"أنا.. أنت؛ فكُنْ بخيرٍ.. لأكونَ يا حبيب"

اجتماعٌ تصاحبُه الملائكة، يذكرونَ الله عندهم، فيذكرَهم عنده! ثمّ يطرقُ البابَ طارقٌ، وما أعظمَه مِن طارق!

أتى "مُحمَّد" النّبي إليهم بنفسِه، يغترفُ من هذا الحبّ في الله، وهوَ منْه وعليه، يسوقُ اللهُ خطواتِه إليهم، فيأتي يجلس معهم ويستأنسُ بحديثهم، وإذا القدرُ ينسجُ عليهم أنوارَه، ويحلّ الله عليهم أسرارَه، فيَخْرج مِن بينهم رجلٌ يحبّ الله ورسولَه ويسأل:

"يا رسولَ الله، أُمَرَنا الله أنْ نُصليّ عليك فكيف نصلي عليك؟".

فيسكُتُ الرّسولُ سكتةً معلومةً مأمورةً، يدري الجميع ما وراءها، وأنّ في خبرها الخيْر، تُخاط داخلَ صدورهم عُرى السّعادةِ بخيوطٍ من نور، يحملُهُم اليقينُ بالله والشّوقُ إليه؛ فتتصاعَدُ فيهِم الهمّةُ ولا تنطفىء، ينتظرون إجابةَ السؤال.

أخيرًا أتى ردُّ السّماء، فقال النبيّ..

قولوا.. "اللّهمّ صلّ على مُحمَّد، وعلى آل مُحمَّد، كما صلّيت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم؛ وبارك على مُحمَّد، وعلى آل مُحمَّد، كما باركتَ على إبراهيم، وعلى آل إبرهيم؛ في العالمينَ إنّك حَميدٌ مَجيد".

فاهتزّتِ القلوب، وارتجفَتِ النّفوس، وبكَتِ العيون، واجتمعت الأفئدة، هنا في تلك اللّحظة المُباركة بدأت قصّةُ أعظم حُبٍّ بعدَ حُبِّ الله، هنا وُضِع حجرُ البناء..

"مَن صلّى عليّ صلاةً؛ صلّى اللهُ عليه بها عشرًا، ورفعه بها عشرًا، ومَحى عنه بها عشْرًا، وأعطاه عليها عشْرًا".

جاءتْ ضحكةُ الشّمس كنورِ الصّباح هاتفة:

- ونسألُ عن حكمة الاجتماع!

تالله ما تُرك شيء مِن قدَرِ الله إلّا وكان جنديًّا يهدي إليه، ويدلّ عليه، ما تركَنَا الله أبدًا.. ما تركنا!

القمرُ يبدو أبعَدَ كثيرًا عنْ ما كان في بداية الاجتماع، لكنّ نفسَه مازالت قريبةً منهم لا تتفلّت، قال بصوتٍ يملؤه الحنين:

– إذا أرادَ اللهُ لأقداره أن تنفذَ سيّرَ لها من جندِه قومًا، والآن لهُم السّعي، فمهّدوا الطريق لأنفسِهم وللأمم مِن بعدهم، فسبحانَه من إلهٍ عظيم، ما أكرمَه!

***

للمَتِ الشّمسُ حنينَها، وأنينَها، شوقَها ولهفتَها، قالتْ بشبْهِ قوّة:

– هل في الانتظارِ مِن حكمة؟

ابتسمَتِ الأرضُ بحنوٍّ وكأنّها في بسمتِها تمسحُ على رأس الشّمس وعينها، وتقبّل دمعها، وتمسّد همّها حتّى ينطفئ، أجابتها:

– الانتظارُ من نِعم الله المختبئة في جرابِ الألم، يحسبُه الناسُ شرًّا، وهو تمامُ الخير، تُعاد الحساباتُ في الانتظار، وتتغيّر القرارات، وتقومُ حرب، وتهدأ أخرى، الانتظارُ هو عينُ

الحكْمة، وما أقدَمَ أحدٌ على قرارٍ دون انتظار يتبعه تفكّر وتدبّر إلّا نَدِم.

مُحاولًا أنْ يغترف مِن حكْيِها ما استطاع؛ سألَ القمر:

- متى يستسلمُ الإنسان؟

نظرتْ إليه الأرضُ بتمعّنٍ، فكّرت قليلًا ثُمَّ أجابت:

- لوْ وجدَ الإنسانُ ما يحارب لأجله؛ ما استسلم أبدًا.

- ألن يُقاتِل حتّى من أجل نفسِه؟

- ليسَ بقدْر قتالِه من أجل مَن يخسر، وإنْ لم يملك الإنسانُ ما يخسره فلنْ يُقاتل، سيجلسُ ساكنًا مُنتظرًا الموتَ بكلّ رَحابةِ صدْر.

- عندكِ مِن الحكايةِ ما تُسْمِعينا؟

علِمَتِ الأرضُ في نفسِها أنّ الحديثَ سيصلُ لهذا، ولنْ يخرج عنه، أدركتْ تعلّقَ القمرِ بأقدارِ الله، وحرصَه أنْ يملأ جرابَه بكلّ ما تحكي، ابتسمتْ بصدقٍ، وقالت بتفهّمٍ:

– نعمْ يا "صُنعَ الله"، اسمع..

ذاتَ مساء، وفي اللّيلة الأولى من عام ألفين وعشرين، أضاءتِ الأنوارُ بحيّ الهرم، فاليوم يومُ الفرح، ستتزوّج "أميرة". صوتُ الدّفوف أيقظَ الشّجرَ والسيارات، حتّى الرياح كانت تنتفضُ كلّما مرّت من أمامِ البيْت، سعادةُ الجمعِ ألْهَبت رنّةَ الدّفِّ فجعلتْها تصدَحُ دونَ عناء، أقبلَ صاحبُ الفرحة الأكْبر، عَقدَ على أميرتِه بعقْدِ الحبّ وميثاقِ الأمانة، لن يتركَها، لن يُفلِتها، لن يكسرها، لن يوجعَها، لن... لن....

جهّز الكثيرَ من الوعود ليصبّها عليها حينَ يراها، ليضمّها ضمّة الوعد؛ فلا تجزع ولا تفزع.

كانتْ جالسةً على استحياء، ترجفُ، تنتفض، وكأنّما أصابها مسّ من الشتاء!

أقبلَ تجاهها وسلّم، ثُمَّ سلَّم، ثُمَّ سلّم، وفي كلّ مرّة تجيبه، فيقولُ شيئًا، فيخرج منه سلامًا، حاول التحدّث..

فكان السّلام!

سكتَ، سكتَتْ، أدركتْ أنّ ما بها يبلُغُ عنده أضعافه، وأنّ ما يصيبَها يصيبُه من المقدار آلافُه، ضحِكَت بنفسها على نفسِها، تُحبّه منذُ سنوات وهو يحبّها دونَ بوْح، لكنّ القلوب علِمَت كلّ شيء، مُختبئة في الصّدور لكنْ يتجلّى سرّها على الوجوه، فتبرزُ في دمعةٍ راكدة، مشتاقة،

وكمْ من زفرةٍ كان الدّمعُ فيها نمّامًا فصيحًا!

مرّت دقائقُ، فلمّا استجمَعَ قوّتَه، وأقامَ حجّته، وسمّع في عقله دفاترَ وعودِه؛ فلما أراد سكْبَ ما لديْه عندها خانَتْه كلُّ الكلمات، حتّى اسمها، فلم يملكْ إلّا أنْ يناديها..

"يا أحبَّكِ الله" وسكت..

لكنّ سكتتَه كانت إجبارًا لا اختيارًا، علا صوتُ ضربٍ بالشّارع، اهتزّ الفرحُ وأهله، الكلّ يجري حيث لا يجب، فزع الجمعُ والعروس، نزل الرّجال، فكان لِزامًا عليه أن يتْبَعهم، نزلَ الجسدُ وبقي القلبُ من خلفه ساكنًا!

احتدّ النّزاع، وازدادَ الهرَجُ والمَرَج، شابّان لا يملكان من الدّنيا غير قوّتهما؛ فيجادلان بها ويتبارزان..

مِن أينَ أتى السكّين؟!.. لا أحد يدري.

مَن أحضره، وأخرجه؟!

مَن غرزَه؟!

مَن المقتول؟ ومَن القاتل؟

انفضّ الجمعُ بسرعة، وقد تكوّم رجلٌ كبيرُ السّن على الأرضِ دونَ حراك، واختفتِ السّكين.. جاءتِ الشرطة فلملمَتْ منهم مَن لمْلَمت، وكان العريسُ أحدَ المحمولين على جناحِ الشّك إلى مقرّها، ووالدُ العروسِ محمول إلى المشفى..

لم تمرّ ساعاتٌ حتّى قالتِ الشّرطة بعدما فقد الأبُ أنفاسَه بين يدي الطّبيب وهو يُقسمُ أنّ زوجَ ابنته ليس الفاعل..

"الأبُ مقتول، وزوجُ الابنة قاتلُه!".

جاء الشّهود من العائلة، قال العمّ..

"لطالما رأيتُ الكرهَ في عيْنِ ذلك الرجل"

قالتْ زوجته..

"كنتُ على يقين أنّ هذا الرّجلَ سيّئ، ومع ذلك زوّجه ابنتَه"

قال ابنُهم..

"هو القاتل، فقد رأيتُه يحمل سكينًا بين يديه وهو قادم من عند عروسه، حاول أن يخفيه لكنّي رأيتُه"

أظلمَتِ الحياة، لا بصيص أمل، يبحث الجميعُ للفتاة عن مخرجٍ مِن هذا الزّواج، لم ينتبِهْ أحدٌ أنّها فقدتِ اثنيْن في يوم؛ والدَها وزوجَها!

لم يسألْها أحدٌ.. كيف حالها؟

أعلنَ الجميعُ أنّ زوجها هو القاتل، وآمنوا بالخبر، كتمتْ في نفسِها كفْرَها بقولهم، حبستْه داخلَ صدْرها، تسأل الله أنْ يرحمَ ضعفها وضعفَه، يدبّرَ الأمرَ وحده، هو الملك!

أحضرَ عمّها المحامي ليسيرَ بإجراءات الطّلاق، رفضت!

كان الرّفضُ صادمًا للجميع، حتّى أمّها خاصمتها،

لكنْ أنّى لهم أن يُدركوا ما بها!

إنْ قالتْ زوجي بريء؛ فقدْ كفرتْ بأبيها ومحبّته!

وإنْ قالت هوَ قاتلُ أبي؛ فقد كفرَتْ بزوجِها وبراءته!

جاءها الخبر..

يرفضُ الزّيارة وعودة المحامي، يجلس وحيدًا لا يُحدّث أحدًا، أظلمَ وجهُه، فترَتْ عزيمتُه، كلّ الأدلّة غير الموجودة تشهدُ ضدّه، انتهى كلّ شيء!

ذهبَتْ إليه دونَ علْمِ أحد، فممنوعٌ عنها فعلُ ذلك، ولمّا وصلتْ رفضَ رؤيتها، أخبروه منذُ أيّام أنّها صدّقت كوْنَه القاتل، لم يقتنعْ بكلامهم، لكن ماذا لو كان حقًّا!

يخشى أنْ يرى في عينيها ما رآه في أعْين الجميع، يخشى أن تصدّقهم وتكذّبَه!

كان على يقينٍ من أنّ الاختبار آتٍ لا مَحالة، مُهلِك، مُحرِق، مُدمّر، ليس لتشاؤمه؛ وإنّما لعلمِه بقسوة الحياة، لن تهدأ حتى تتركَ فيهم أثرًا!

تصنَعُ فيهم جرحًا، تضعُ ألمًا، تُخرجُ وجعًا، هكذا هي الحياة!

كان يقفُ واجمًا متعَبًا، يستنسِخُ في نفسه أحاديثَ الوُدّ التي كان يحلمُ بها معها، كلّها، بكلّ رواياتها الضعيفةِ والصحيحة.. وجداول السّكينةِ والأمان، وضحكِ قلبِها بالحنان، ولمعَة عينِيها وهي تهمسُ باسمه.

عادَ الحارسُ إلى زنزانته، وسلّمه ورقةً وهو يرتجفُ هامسًا..

"خذْ هذه واخْفِها، زوجتُك أرسلتها".

ورقةٌ صغيرة لا تبلغ أكبرَ من أصْبع، مكتوبٌ على ظهرها مسألةٌ حسابيّة، عَلِم أنّها كُتِبَت على عُجالة، انقبض قلبُه، لن تحتملَ هذه الورقة أكثرَ من كلمة أو كلمتين، إذًا صدّقتهم..

"طلّقني".

هكذا علِم، وقف الحارسُ مُنتظرًا ردّه، لكنّ الأخير كان يُحارِبُ نفسَه، في النهاية فتحها..

"آمنتُ بكَ؛

فلا تكفُرْ أنتَ!"

بُهِتَ، كيف لها أنْ تبقى وهي الخاسرة في كلّ الأحوال؟!

ارتَعَشتْ يدُه وبدا أنّ قلبَه يكاد يقفزُ من صدره مغادرًا، تأثّر الحارسُ لرؤيته، سلّمه قلمًا وهَمَس..

"اكتبْ بسرعة وسأوصلها، هيّاا!"

قبضَ القلم من يدِه، وكتب جُملةً من ثلاث، أخذ الحارس الورقةَ والقلم، وسار يهمس بشبْهِ تأفّف..

"والله وصرْتَ مرسالَ غرامٍ يا حسنين!!"

أمّا "أميرة" فاستلمتِ الورقةُ بقلبها قبْل يدِها، نفضت فزعها عنْها، وخوفها منْها، وفتحتها....

"يا أحبَّكِ الله".

لم تملكْ غيرَ الضّحك، مَن يراها يحسب أنّها جُنّت، لكن لا أحدَ يعلم أنّها تضحكُ على ذاك الذي لا يستطيعُ أن يكتب لها كلمةً واحدة إلى الآن، حتّى وهو مسجونٌ بين أربعَة أركان!

بقيَتْ تنظرُ في الورقة، تحفَظُ حروفَها حرفًا حرفًا، تملأ رفوفَ ذاكرتها بها رَفًّا رَفًّا، تحضنُ وُدًّا، تقطفُ شَغَفًا، تلقُطُ ذِكرَى، صَفًّا صفًّا..

عادتْ إلى البيت بوجهٍ غيرِ الذي غادرتْه به، مازالت أمّها تخاصمُها، حاولتْ معها، زادتْ في رجائها أن تسمعَها، تؤمن أنّ كلّ شيء بقدَر، وقدَرُ والدِها كان ذاك اليوم، يتصدّع قلبُها مِن فراقِه، ويتمزّق من ظُلم زوجِها، عالقةٌ هي لا تملك إلّا الدّعاء، وكم في الدّعاء مِن معجزات!

أمّا ذاك المدلّه.. فبعْدَما كان لا يملكُ إلّا الحزن والهمّ، كُنِس كلّ شيء من نفسِه وما بقي إلّا الإيمان!

كان رافضًا لكلّ شيء؛ الحديث، الطعام، الزيارة، فجأة صارَ يجلسُ مع نفسِه يتذكّر كيفَ بدأ القتال، ومَن كان به، ومَن لم يكُن، صار يريدُ مِن الحياة كلّ شيء، حتّى أتى يومٌ وبكلّ ما أوتيَ من بِشْرٍ أرسل إلى الحارسِ يسأله..

"أخْبِرني يا عمّ، كيف يكونُ الاستئناف؟

فقدْ تذكّرتُ مَن كان يُمسك السّكين"

صفّقَتِ الشّمس بيَدِها، وقد تهدّج صوتُها، وأضاء باطنُها من

السّعادة، سألت بلهفةٍ:

– وهلِ اجتمعَا؟

– ليسَ بعْدُ يا "رحمَةَ الله"، الأيّام مازالتْ تختبرُ قوّتهم، لكن أوقنُ أنّهما سيجْتَمعَا؛ فما ربّك بظلّام، وما كان ليفرّق قلبيْن ما التَقَيا إلّا على حبّه.

بطَربٍ تحدّث القمر:

– سمعتُ أحدَهم يومًا يهمسُ بها، والآن آمنتُ بما هَمَس.. (يرسِلُ الرّحمَن جندَه بين القلوب؛ فلا يَعصُونَ "الحبَّ في الله" ما أمَرَهُم، ولكلِّ دَقَّةٍ هُم حافظون).

فأتمّتِ الأرضُ الحديثَ بقوْلها:

– سبحانَه سبحانَه!

***

اقتربَ الفراقُ جدًّا، وها هو يُسدِل ستارَ الحنين بالفعْل، تتقلّب الأفكار، وتتبايَنُ ما بين بدايتِها ونهايتِها، تنزلُ رحماتُ الله عليهم تتْرا، يروْنَها في تجمّعهم، وفي حديثِهم، وفي جدالهم، واتّفاقهم، ما أعظمَ الملك حين يُجري العجيبَ بقدرتِه! والمدهشَ بعظمتِه! والكثيرَ من الخير ببركتِه!

هذه المرّةُ قالتِ الأرضُ وقد غلبتْها صحوَةُ الإفاقة، وغادرتها أنشودَةُ السّعادة، فأخفَتِ الدّمع الذي يهمّ أنْ يفيض:

- أُحبَّ أن أقصّ عليكما آخرَ القصَصِ وأعْسَلَها.

وكأنّما تقفزُ إليها قفزًا كانتِ الشّمسُ تهبّ على الأرض، والقمرُ يميلُ إليها ميلًا يسيرًا، وكأمٍّ تُلفلِف على أولادها جناحَ حنانها، ورداءَ أمانها؛ جلستْ بينهم وقالت:

- بالعامِ الخامس عشر من هجرةِ النّبي "مُحمَّد" صلّى الله عليه وسلّم، انتصرَ المسلمون في معركةِ القادسيّة نصرًا كبيرًا على الدّولةِ الفارسية، لكنّ عددًا من قادةِ الجيش الفارسي

تمكّنوا مِن الفِرار، يَجْمَعون الناسَ للقِتال، ويحْشُدون أتباعَهم للثّأر، ويُثيرونَ فيهم الحميّة، ويؤلّبونَ ويستعدّون ويدبّرون، باذلينَ كلَّ ما بوسْعِهم للإعْداد للمعْرَكة القادمة، ثُمَّ وبعدَ سنوات، كانتِ المعركة، والتي سُمّيَت بـ "نهاوند"، برزَ الجيشان وتقاتَلَ الصّفّان، وتلاحَمَ الجانبان، فكانت معركة تدوّي من زأرِ رِجَالها الجِبال، وتدكّ الأرض من تحتهم دكًّا، يقودهم المجاهدُ المقاتلُ الأسد، "النّعمان بن مُقرن المزني"، وقائد الفرْس هو "الفيرزان"، كلا الفريقيْن يبذلانِ كلَّ الجهْد والدّم والأرْواح، حتّى أذِن اللهُ للمسلمين بالنّصر المؤزّر، بعد تضحياتٍ كثيرة.

وبعدَ انتهاء المعركة، وعَدّ القتْلَى، وإنقاذِ الجرْحى؛ لاحَظَ "حذيفة بن اليمان"، والذي تولّى قيادةَ الجيش بعد استشهاد "النّعمان"، تبيّن له أنّ "الفيرزان" ليسَ في القتلى، وأنّه فرّ مِن القتال!

حينَها عزمَ على مُلاحقتِه والظّفر به؛ لأنّ قائدًا مثلَه إذا نجا؛ فسيجمعُ الصفوف، ويحشدُ النّاس لمقاتلة المسلمين، وكان هذا الأمرُ منه حصافةً، ونظرًا حكيمًا بعيدًا، وفكْرًا استراتيجيًّا سديدًا، فاختار مَن يعطيه مثلَ تلك المهمّة.. وكان اختيارُه على "القعقاع بن عمرو"، نمرٌ قويّ شديدُ البأس.

كانَ "الفيرزان" ذكيًّا واسعَ الحيلة، مُسرعًا في فراره، مُجِدًّا في هربِه، لكن.. واجَهَ مشكلةً لا قِبَل له بها، لقد كان يعدو في أرضٍ زراعية ضيّقةِ السّكك، وكانت هذه الأرض غنيةً بالعسَل، الذي عمدَ أصحابُه إلى حمْلِه على دوابّهم حين فرّوا مع الفارّين، وعندها صارتِ الدّوابّ عبئًا على السكك، تعوق بكثرتِها وبطئها خطّةَ "الفيرزان" في الهرب، فسُقِط في يده، السّدودُ أمامه، والقتلُ وراءه!

ما استطاعَ أن يجدَ منفذًا أو مَهْربًا، حتى وصل إليه "القعقاع"، فنزلَ إليه وحمَلَ عليه حملَةَ بطلٍ يُجاهد في سبيل ربّه؛ فقتله.

فلمّا عادَ "القعقاع" إلى قائدِه، سأله الأخيرُ مُستفهمًا..

"أنّى لك هذا النّصر السريع؟".

فقصّ عليه قصّةَ العسل و"الفيرزان"، فقال القائدُ يومَها تعقيبًا على ما سَمِع.. "إنّ لله جنودًا من عَسَل!"

بدَا على الشّمسِ كلّ التأثّر وهي تسمعُ جُملةَ الأرض، والقمرُ من أمامِها يموجُ خفقُه ونبضُه وضوؤه وعتمتُه، كلّ يرتدّ إليه، وعليه، في دويّ مَهيب، ثُمَّ تكلّم:

- تالله يكفي أنْ يتأمّل الإنسانُ في جندِ الله من ملائكة وشياطين، وإنس وجنّ، وليل ونهار، وصحّة ومرض، ومطر وجدْب، ورياحٍ وأعاصير، وفقرٍ وغنى، وبصلٍ وعسل، وكلّ ما يطيقُ متابعته وما لا يطيق، ليقفَ مأخوذًا مبْهورًا!

- سبحانَ الملِك، سبحانه!

بعدمَا تمالكَتْ نفسَها، همستْ مِن بين شهقاتِها وزفراتها:

- لوْ يدري الإنسانُ ما أرسَلَ اللهُ له وعليهِ من جنود؛ لمضى يبحثُ عنهم، ويتقصّى وجودَهم وأرضَهم، ثُمَّ لكانَ لهم في نفسِه

أثرٌ، وقوّةٌ في الجسد، وطلاقةٌ في الرّوح، وفرحةٌ في القلب، وبسمةٌ في الوجْه، ورسوخٌ في اليقين، ومَضاءٌ في العَزيمة.

ولعلّ الواحدَ منهم يمرّ ببائع العسَلِ فيبتسِمُ ويتذكّر كيف كان العسلُ جنديًّا يقاتلُ مع المسلمين فيقتُل، فيشكر للعسَلِ جنديّته، ويدركُ أخيرًا أنّ كلّ ما في الكون هوَ جنديّ من جنود الله، والعسلُ أحلى هذه الجنود مذاقًا!

***

دقائقُ وتنتهي آيةُ الله في الكون، وقفَ الثلاثةُ يتناقلون النّظر فيما بيْنهم، تهزّهم الأحاديثُ الأخيرة هزًّا، تجلّى على الشّمس عظيمُ الحزن، يبدو الغمّ على جَمَراتِها، والهمّ على نارها، حتّى تساقطت نفسُها أسفًا!

وعنِ القمر، فكأنّما قامتْ عنده قيامةُ الآلام، فأخذَه وجعُ الفراق، حتّى أذاب لفائفَ قلبه، مع ذلك يحاول أنْ يكظِمَ ما ألمّ به!

أمّا الأرض، فباتَتْ تتجرّع غُصصَ الكرْب، وهي لا تملكُ أن تفرّجَ عنْهما أو عن نفسِها، الكلّ مُجتمعٌ تحت مظلّة واحدة للألم.

وقفتِ الشّمس وقفتَها المعهودة، جالتْ بنظرها بين رفيقَي ساعاتها الماضية، كانت بخطبٍ يستوكِفُ ما بصدْرِها من دموع، لكنّها ابتسمَتِ ابتسامَ الشّاكرين، وقالت:

- الحمدُ لله الذي كتبَ علينا الفراق، وجعلَ فيه آيةً من آياتِ التّلاقي، وجمَعَنا بلا حولٍ منّا، وفرّقنا بلا عزمٍ فينا، وقدّر علينا قدْرًا من الغيْبِ، وأعطانا قدْرًا من العلمِ؛ فالحمدُ للهِ أوّلًا، والحمدُ للهِ آخرًا.

مُبتعدًا صارَ مكانُ القمر، يستقطِرُ المآقي، مسترسِلًا العبْرة، مُسبلًا النّظرة، لملَمَ من ثباتهِ ما لملَمَ، وابتسمَ، ثُمَّ تكلّم:

- الحمدُ لله الذي جعلَ بعد شتاتِنا اجتماعًا، وبعد اجتماعِنا بُعدًا ووَداعًا، وفي حديثِنا ودًّا وانْتفاعًا، والحمدُ الله الذي قدّر

الكسوفَ والخسوفَ بقوّته، وجعَلَ في فوات عذابِهما تمامَ رحمته، ومكّنَنا من رؤيةِ عظمتِه؛ فالحمدُ لله أوّلًا، والحمدُ لله آخرًا.

وقفَتِ الأرضُ حينها وقد تشبّع منها الأنين، وتهيّج فيها الشّوق، تُمسِكُ جفونَ أركانها أنْ تهمّ بالبُكاء فتسيل، وتقبضَ على عصا رِضَاها أن يتشقّق مِن وَهَن الحنينِ فيميل، تماسكتْ وتحدّثت:

- الحمدُ لله الذي أنْطقنا بلا شفاه، وحرّكنا بلا أقْدام، وجعلَ فينا نعمةَ المحبّة والسّلام، الحمدُ لله الذي صنَعَنا بقدرته، وأبدَعَ فينا بعظمته، ويجمَعُنا بحكمته، ويفرّقنا برحَمَتِه، الحمدُ لله الذي كتبَ لقاءنا فجَمّلَه، وكتبَ فراقَنا فَهوّنَه، وجعل في مستقبلِنا مِن جديد اجتماعنا؛ فالحمدُ لله أوّلًا، والحمدُ لله آخرًا.

ثُمَّ دقّت السّاعة الثّانية عشَرة صباحًا...

وبدأ حديثٌ آخرُ بين خلقٍ آخر، لا يدركُ حروفَه إلّا الله، وتشهد عليه الأرضُ، ويَراه القمر!

استيقظَتِ الصّغيرة، فأسرعَتْ إلى الباب مُهرولةً إلى الحديقة، اقتربتْ حيث تركتَ أشلاءَ ما حسبتْهُ لعْبَتَها، فأمسكت الهاتفَ وحرّكته بين يديْها، ضربتْه ضربًا، أسقطتْه أرضًا، فَعادتْ إليه بعضُ حياة، ثُمَّ أتى منه صوتٌ أفزعها...

- هذا وقد كشفَ المعهدُ القوميّ للبحوث الفلكيّة أنّه قد انتهتِ الظّاهرة الفلكيّة المُسمّاة بـ "الكسوف"، وقدْ حدّد العلماءُ أنّه بعدَ شهورٍ سيكون خسوفٌ جديدٌ لا يحدُثُ إلّا مرّة فـ.....

هُنالِكَ أمسكَتِ الصّغيرةُ الهاتف، أو ما تبقّى منه؛ فألقته غاضبةً على طول ذراعِها، الآن ماتَ الهاتف، والتفّت عائدةً إلى البيت كارهةً الهواتِف، وما يخرُجُ منها.

[تمّت بحمد الله]

مَحبُوبَة مُحَمَّد سَلَامَة

دار البشير للثقافة والعلوم